الفصل الأوّل

حياة الذّهبيّ ومنزلتُهُ العِلميّة

أولاً ـ بيئة الذهبي ونشأته:

قامت دولةُ المماليك البحرية على أنقاض الدولة الأيوبية بمصر والشام وتمكن المماليكُ أَن يُكوِّنوا دولةً قويةً كان لها أثر في إيقافِ التقدم المغولي، وتصفية الإمارات الصليبية في بلاد الشام[1].

وكانت دمشقُ في نهاية القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن قد أصبحت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة الفكرية، فيها من المدارس العامرة ودور الحديث والقرآن العددُ الكثير، عمل على تعميرها حكامُها وبعضُ المياسير من أهلها لا سيما منذُ عهد نور الدين زنكي[2]. وكانت العنايةُ بالدراسات الدينية، من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ وعقائدَ، هي السمةَ البارزةَ لهذا العصر، ولم يعد هناك اهتمام كثيرٌ بدراسةِ العلوم الصرفة التي كانت قد أصبحت من «الصنائع المظلمة»[3] و«الهذيان»[4].

---

(١) راجع عن عصر المماليك: الدكتور علي إبراهيم حسن: «دراسات في تاريخ المماليك البحرية»، ط ٢ (القاهرة ١٩٤٨) والدكتور سعيد عاشور: «العصر المماليكي في مصر والشام»، وغيرهما. والكتاب الأخير أحسن ما كتب في الموضوع.

(٢) يتضح ذلك من العدد الذي ذكره النعيمي في كتابه «تنبيه الدارس».

(٣) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٦٣ (أيا صوفيا ٣٠٠٨).

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢، الورقة ٤.

ثم لاحظنا تبايناً شديداً في قيمة الإنتاج الفكري لهذه الفترة وأصالته، فوجدنا الكثيرَ من المؤلفات الهزيلة التي لم تكن غير تكرارٍ لما هو موجودٌ في بطون الكتب السابقة، ووجدنا القليلَ من المؤلفات التي امتازت بالأَصالة والإبداع والمناهج العلمية المتميِّزة. وقد زاد من صعوبة الإبداع أَنَّ الواحدَ من العلماء كان يجد أَمامه تُراثاً ضخماً في الموضوع الذي يَرومُ التأليف فيه، وهو في وضعه هذا يختلفُ عن المؤلِّفين الأَوَّلين الذين لم يُجابِهوا مثل هذا التراث.

وشهدت دمشقُ في هذا العصرِ نزاعاً مذهبياً وعقائدياً حاداً، كانَ الحُكَّامُ المماليكُ يتدخلون فيه في كثيرٍ من الأَحيان، فيُناصرون فئةً على أُخرى[١]. وكان الأيوبيون قبل ذلك قد عُنُوا عنايةً كبيرةً بنشر مذهب الإمام الشافعي، فأَسَّسوا المدارسَ الخاصة به، وأوقفوا عليها الوقوف[٢]. وعنوا في الوقت نفسه بنشر عقيدة الأشعري، واعتبروها السُّنةَ التي يجبُ اتباعُها[٣]. لذلك أصبحت للأشاعرةِ قوةٌ عظيمةٌ في مصر والشام. وقد أثر ذلك على المذاهب الأخرى، فأصابها الوهنُ والضعفُ عدا الحنابلة الذين ظَلُّوا على جانبٍ كبيرٍ من القوة، وكانت لهم في دمشق مجموعةٌ من دور الحديث والمدارس[٤].

وكان النزاعُ العقائديُّ بين الحنابلةِ والأشاعرةِ مضطرماً، زاده اعتمادُ الحنابلة على النصوص في دراسة العقائد، واعتمادُ الأشاعرةِ على الاستدلال

---

(١) ابن كثير: البداية، ١٤ /٢٨، ٣٨، ٤٩، وابن حجر: «الدرر»، ١ / ٦١ وغيرهما.

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا: المنذري وكتابه «التكملة»، ص ٣٨ فما بعد.

(٣) وكان صلاح الدين أشعرياً متعصباً كما هو معروف من سيرته.

(٤) انظر النعيمي: «تنبيه الدارس» ٢ / ٢٩ ـ ١٢٦.

العقلي والبرهان المنطقي في دراستها[١]. وبقدر ما ولَّد هذا التعصبُ من تمزقٍ في المجتمع، فإنَّه وَلَّد في الوقت نفسه نشاطاً علمياً واضحاً في هذا المضمار، تمثَّلَ في الكتب الكثيرة التي أُلفت فيه. كما ظهر تحيُّزٌ واضح في كثيرٍ من كتابات العصر.

وكانَ الجهلُ والاعتقادُ بالخُرافات والمغيّبات سائداً بين العوام في المجتمع الدمشقي. وكان التصوُّفُ منتشراً في أرجاء البلاد انتشاراً واسعاً، وظهر بينهم كثيرٌ من المشعوذين الذين أثَّروا على العوام أيَّما تأثير. بل عملَ الحكامُ المماليكُ على الاهتمام بهم، وكان لهم اعتقادٌ فيهم، فكان للملك الظاهرِ بِيبرس البندقداري «ت ٦٧٦ هـ» شيخٌ اسمه الخَضِرُ بنُ أبي بكر بن موسى العدوي، كان «صاحب حالٍ، ونفسٍ مؤثرة، وهمة إبليسية، وحال كاهني»، وكان الظاهرُ يُعظمه، ويزوره أكثر من مرةٍ في الأسبوع، ويُطلعه على أسراره، ويَستصحبه في أسفاره لاعتقاده التام به[٢]. وانتشر تقديسُ الأشياخ، والاعتقادُ فيهم، وطلبُ النذور عند قبورهم، بل كانوا يَسجدونَ لبعض تلك القبور، ويطلبونَ المَغفرةَ من أصحابها[٣].

في هذه البيئة الفكرية والعقائدية المضطربة، وُلد مؤرخ الإسلام شمسُ الدين أبو عبدالله محمدُ بنُ أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣[٤]. وكان من أُسرةٍ تركمانية الأصل، تنتهي بالولاء

---

(١) أبو زهرة: ابن تيمية، ص ٢٥.

(٢) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٦ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٣) المصدر نفسه، الورقة ٧٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

(٤) انظر مثلاً: الذهبي: «طبقات القراء»، ص ٥٤٩، الصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٤، و«نكت الهميان»، ص ٢٤٢، وذكر ابن حجر أن مولده في الثالث من الشهر المذكور (الدرر، ٣ / ٤٢٦).

إلى بني تميم[١]، سكنتْ مدينةَ مَيَّافارقين من أشهر مدن ديار بكر[٢]. ويبدو أن جد أبيه قايماز قضىٰ حياته فيها[٣]، وتُوفِّي سنةَ ٦٦١ هـ وقد جاوز المئة، قال الذهبي: «قايماز ابن الشيخ عبد الله التركماني الفارقي جد أبي. قال لي ابنُ عَمِّ والدي عليُّ بن فارس النجار: تُوفِّي جدُّنا عن مئة وتسع سنين. قلتُ عُمِّرَ، وأَضَرَّ بأَخَرة، وتُوفِّي سنةَ إحدى وستين وست مئة»[٤]، وكان قد حج[٥].

وكان جده فخر الدين أبو أحمد عثمان أمياً لم يكن له حظٌّ من علم، قد اتخذ من النجارة صنعةً له، لكنه كان «حسن اليقين بالله»[٦]. ويبدو أنه هو الذي قدم إلى دمشق، واتخذها سكناً له، وتوفي بعد ذلك بها سنة ٦٨٣ هـ وهو في عَشْرِ السبعين[٧].

أما والده شهابُ الدين أحمد، فقد ولد سنة ٦٤١ هـ تقريباً، وعدل عن صنعة أبيه إلى صنعة الذهب المدقوق، فبرع بها، وتميّز، وعُرِف بالذهبي، وطلبَ العلمَ، فسمع «صحيح البخاري» سنة ٦٦٦هـ، من المقداد القيسي،

---

(١) كتب الذهبي بخطه على طرة المجلد التاسع عشر من «تاريخ الإسلام» (نسخة أيا صوفيا ٣٠١٢) «تأليف محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز مولى بني تميم».

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ٤ / ٧٠٣، فما بعد.

(٣) لم يذكر الذهبي في نسبته أنه دمشقي، بل قال: «الفارقي»، مما يدلُّ على أنه لم ينتقل إلى دمشق. وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمة الجزء الذي طبعه من «سير أعلام النبلاء» أنَّ قايماز هو الذي قدم دمشق، وأشار إلى معجم الشيوخ، ولم نجد لذلك دليلاً في مصدره ١ / ١٥ وانظر معجم الشيوخ (م ١ الورقة ٨٩).

(٤) الذهبي: أهل المئة فصاعداً، ص ١٣٧، و«معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٨٩.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٨٩.

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ١ ورقة ٨٩.

(٧) المصدر نفسه.

وحجَّ في أواخر عمره، وكان ديِّناً يقومُ من الليل[١]. وقد يسَّرَتْ له صنعتُه رخاءً وغنى، فأعتق من ماله خمس رقاب[٢]، وتزَّوج من ابنة رجلٍ موصلي الأصل هو علم الدين أبوبكر سنجر بن عبدالله عُرف بغناه، وكان «خيراً عاقلاً مُديراً للمناشير بديوان الجيش . . . وخلَّفَ خمسةَ عشر ألفاً»[٣] من الدنانير، وأحلَّه علمهُ وغناه ومروءتُه مكاناً جعلت خلقاً من أهل دمشق يُشيِّعونه يوم وفاته في آخر جمادى الأولى سنة ٦٩٧ هـ، يؤمُّهم قاضي القضاة يومئذ عزُّ الدين ابنُ جماعة الكناني[٤].

وعُرف محمدٌ بابن الذهبي، نسبةً إلى صنعةِ أبيه، وكان هو يُقيِّدُ اسمَه «ابن الذهبي»[٥]. ويبدو أنه اتخذ صنعةَ أبيه مهنةً له في أول أمره، لذلك عُرف عند بعض معاصريه بِـ«الذهبي» مثل الصلاح الصفدي[٦]، وتاج الدين السبكي[٧]، والحُسيني[٨]، وعماد الدين ابن كثير[٩]، وغيرهم.

---

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام» (وفيات ٦٩٧) نسخة أيا صوفيا ٣٠١٤، و«معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ١٣، والصفدي: «الوافي»، م ٧ ورقة ٨٦.

(٢) كان من بينهم فك أسر امرأتين من أسر الفرنجة من عكا (انظر المصادر في الهامش السابق).

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٥٥ وتوفي سنة ٦٨٦.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ١٣.

(٥) ونسبته بِـ «ابن الذهبي» مُقيَّدة بخطه في معظم الكتب والطِّباق التي بخطه مثل طبقة سماع كتاب أهل المئة فصاعداً (ص ١١١ بتحقيقنا)، وطرر المجلدات التي وصلت بخطه من «تاريخ الإسلام» (نسخة أيا صوفيا) وطبقة سماع لكتاب «الكاشف» له (نسخة التيمورية رقم ١٩٣٦) وجاء في أول «معجم شيوخه»: «أما بعد، فهذا معجم العبد المسكين محمد بن أحمد. . . ابن الذهبي».

(٦) «الوافي»، ٢ / ١٦٣ و«نكت الهميان»، ص ٢٤١.

(٧) «طبقات الشافعية الكبرى» ٩ / ١٠٠.

(٨) «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٣٤.

(٩) «البداية والنهاية»، ١٤ / ٢٢٥.

وعاش طفولته بين أكناف عائلةٍ علميةٍ مُتدينة، فكانت مرضعتُه وعمتُه ستُّ الأهل بنتُ عثمان، الحاجةُ أُمُّ محمد، قد حصلت على الإجازة من ابن أبي اليُسر، وجمال الدين بن مالك، وزهير بن عمر الزرعي، وجماعة آخرين، وسمعت من عُمر ابنِ القَوّاس وغيره، وروى الذهبي عنها[١]. وكان خالُه عليٌّ قد طلبَ العلم، وروى عنه الذهبيُّ في «معجم شيوخه»، وقال: «علي بن سنجر بن عبدالله الموصلي، ثم الدمشقي الذهبي الحاج المبارك أبو إسماعيل خالي. مولده في سنة ثمان وخمسين وست مئة. وسمع بإفادة مؤدّبه ابن الخباز من أبي بكر ابن الأنماطي، وبهاء الدين أيوب الحنفي، وستِّ العرب الكِنْدية. وسمع معي ببعلبك من التاجِ عبدِ الخالق وجماعةٍ. وكانَ ذا مروءة وكَدٍّ علىٰ عياله وخوفٍ من الله. تُوفي في الثالث والعشرين من رمضان سنةَ ستٍّ وثلاثين وسبع مئة»[٢]. وكان زوجُ خالته فاطمةَ، أحمدُ بن عبد الغني بن عبد الكافي الأنصاري الذهبي، المعرف بابن الحَرَستاني، قد سمع الحديثَ، ورواه، وكان حافظاً للقرآن الكريم، كثيرَ التلاوة له، وتُوفِّي بمصر سنة ٧٠٠[٣] هـ.

وطبيعي أَنْ تعتني مثلُ هذه العائلة المتدينة التي كان لها حظٌّ من العلم بأبنائها، لذلك وجدنا أخاهُ من الرضاعة علاءَ الدين أبا الحسن علي بن إبراهيم بن داود بن العطار الشافعي: «٦٥٤ ـ ٧٢٤ هـ»[٤] يُسرع، ويَستجيزُ

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ ورقة ٥٧، ولدت ست الأهل سنة ٦٥٣ هـ وتوفيت سنة ٧٢٩ هـ.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ٦.

(٣) المصدر السابق، م ١ ورقة ١٢.

(٤) الذهبي: «ذيل العبر»، ص ١٣٦، و«معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ١، ابن كثير: =

للذَّهبي جملةً من مشايخ عصره في سنة مــولده[١] منهم من دمشق: أحمدُ بنُ عبد القادر، أبو العباس العامري «٦٠٩ ـ ٦٧٣ هـ»[٢]، وابنُ الصابوني «٦٠٤ ـ ٦٨٠ هـ»[٣]، وأمينُ الدين ابنُ عساكر «٦١٤ ـ ٦٨٦ هـ»[٤]، وجمالُ الدين ابنُ الصيرفي «٥٨٣ ـ ٦٧٨ هـ»[٥]. ومن حلب: أحمدُ بنُ محمد ابن النَّصيبي «٦٠٩ ـ ٦٩٢ هـ»[٦]، ومن مكة: الإمامُ مُحبُّ الدين الطبري محدثُ الحرم ومفتيه «٦١٥ ـ ٦٩٤ هـ»[٧]، وغيره[٨]. ومن المدينة: كافورُ بن عبد الله الطواشي[٩]. ويبدو أنَّ علاء الدين ابن العطار قد حج في تلك السنة[١٠] فحصَّل بعض الإجازات من مكة والمدينة. وذكر ابنُ حجر أَنَّ الذين أجازوه في هذه السنة «جمع جم[١١]» وقال في ترجمة ابن

= «البداية»، ١٤ / ١١٧، ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٧٣ ـ ٧٤، النعيمي: «تنبيه الدارس»، ١ / ٦٨ ـ ٧٠، ٩٩، ١١٢. ورأينا لأبي الحسن ابن العطار هذا رسالة في السماع في خزانة كتب جستربتي بدبلن ضمن مجموع برقم ٣٢٩٦.

(١) ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٢٦.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ١٢.

(٣) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٥.

(٤) المصدر السابق، م ١ الورقة ٨٠.

(٥) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٨٧.

(٦) المصدر السابق، م ١ الورقة ١٨.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م الورقة ٨.

(٨) انظر مثلاً: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٩٠، م ٢ الورقة ٦، ٣١، ٥٩ ـ ٦٠، ٨٨، وابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٣٦.

(٩) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢٦.

(١٠) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٩ ـ ٦٠.

(١١) ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٢٦.

العطار: «وهو الذي استجاز للذهبي سنةَ مولده، فانتفع الذهبيُّ بعد ذلك بهذه الإجازة انتفاعاً شديداً»[١].

ويَمضي الطفلُ إلى أحد المؤدبين هو علاءُ الدين عليُّ بن محمد الحلبي المعروف بالبصبص، وكان من أحسنِ الناس خطاً، وأخبرهم بتعليم الصبيان، فيُقيم في مكتبه أربعة أعوام[٢]، وفي أثناء ذلك كان جدُّه عثمان يُدمنه على النطق بالراء يُقَوِّمُ بذلك لسانَه[٣]. ولا نعرفُ في أية سنةٍ ترك المكتبَ، ولكنَّه كان في سنة ٦٨٢ هـ، لم يزلْ عنده حيثُ أنشده في هذه السنة شِعراً لأبي محمد القاسم الحريري[٤]. وقد اتَّجه الذهبيُّ بعد ذلك إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي، فلقَّنه جميعَ القرآن، ثم قرأ عليه نحواً من أربعين ختمة، وكان الشيخُ مسعود إمامَ مسجدٍ بالشاغور، وكان خيِّراً مُتواضعاً بَرّاً بصبيانه، لَقَّنَ خَلْقاً. وتُوفِّي سنة ٧٢٠ هـ[٥]. وبدأ الصبيُّ بالحضور إلى مجالس الشيوخ ليسمعَ كلامَ بعضِهم[٦]. ولما قدمَ عزُّ الدين الفاروثي، عالم العراق، إلى دمشق سنة ٦٩٠ هـ، ذهب الفتى وسلَّم عليه، وحدَّثه[٧]، مما يُدلِّلُ على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر.

---

(١) المصدر السابق، ٣ / ٧٣.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ١١.

(٣) المصدر السابق، م ١ الورقة ٨٩.

(٤) المصدر السابق، م ٢ الورقة ١١ ومات مؤدبه في حدود سنة ٦٩٠هـ.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ، م ٢ الورقة ٧٨.

(٦) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٥٨.

(٧) الذهبي: «معرفة القراء»، ص ٥٤٤. وتوفي الفاروثي سنة ٦٩٤ هـ.

ثانياً ـ بدء عنايته بطلب العلم:

بدأ الذهبيُّ يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنةَ عشرةَ من عمره، وتوجَّهتْ عنايتُه إلى ناحيتين رئيستين هما: القراءات، والحديث الشريف.

أ ـ القراءات:

اهتم الذهبيُّ بقراءةِ القرآن الكريم، والعنايةِ بدراسة علم القراءات، فتوجَّه سنةَ ٦٩١ هـ هو ورفقةٌ له ؛ إلى شيخِ القُراء جمالِ الدين أبي إسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني، ثم الدمشقي، المعروف بالفاضِلي، فشرع عليه بالجمع الكبير[١]، وكانَ الفاضليُّ قد صحب الشيخَ عَلَم الدين السَّخَاوي المُتَوفَّىٰ سنة ٦٤٣ هـ، وهو الذي انتهت إليه رياسةُ الإقراء في زمانـه[٢]، وجمعَ عليه القراءاتِ السبع، وتصدَّر للإقراء بتربة أم الصالح، ولكنَّه أُصيب بطرفٍ من الفالج، فكان يُقرئُ في بيته وينتهي الذهبيُّ عليه إلى أواخر سورة القصص، ويزدادُ الفالج على الشيخ، فيمنعُ الطلبةَ من الدخول عليه، ثم يموتُ سنة ٦٩٢ هـ، وتظلُّ قراءةُ الذهبيِّ على الفاضليِّ ناقصة[٣]. ولكنه كان في أثناء شروعه بالجمع الكبير على الفاضلي، قد شرع في الوقت نفسه يقرأُ بالجمع الكبير على الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بـن غالي المُقرىء الدمشقي «ت ٧٠٨[٤] هـ». وقرأ ختمةً جامعةً لمذاهب القراءْ

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٧، «ومعرفة القراء»، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ ابن الجزري: «غاية»، ٢ / ٧١.

(٢) سبط ابن الجوزي: «مرآة»، ٨ / ٧٥٨، القفطي: «إنباه»، ٢/ ٣١١، الحسيني: «صلة التكملة»، (وفيات ٦٤٣)، الذهبي: «العبر»، ٥ / ١٧٨، ابن كثير: «البداية»، ١٣ / ١٧، ابن الجزري: «غاية» ١ / ٥٦٨.

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٢٧، و«معرفة القراء»، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣، ٥٧٦ ، ٥٩٢.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٣٠، و«معرفة القراء»، ص ٥٧٦.

السبعة بما اشتمل عليه كتاب «التيسير» للداني، وكتاب «حِرْزِ الأماني» للشاطبي على ابن جبريل المصري نزيل دمشق[١].

وما لبث الذهبيُّ أن أصبح على معرفةٍ جيدة بالقراءات، وأصولها ومسائلها، وهو لَمّا يزل فتىً لم يتعدَّ العشرين من عمره، قال في ترجمة قاضي القضاة شهابِ الدين أبي عبدِ الله محمدِ بنِ أحمد بن خليل الخوبي ثم الدمشقي الشافعي المُتوفَّىٰ سنة ٦٩٣ هـ: «جلستُ بين يديه، وسألني عن غيرِ مسألةٍ من القراءات، فمنَّ اللهُ وأجبتُه وشهد في إجازتي من الحاضرين، وأجاز لي مروياته[٢]». على أنه استمر في تحصيل هذا الفن، فكتب في سنة ٦٩١ هـ «المقدمة في التجويد» عن مؤلفها المقرىء المجود أبي عبد الله محمد بن جوهر التلعفري المتوفَّى سنة ٦٩٦[٣] هـ، وتلا ختمةً للسبعة على مجدِ الدين أبي بكر بن محمد المرسي نزيل دمشق المتوفَّىٰ سنة ٧١٨[٤] هـ وجمع الختمةَ على شيخِ القُرَّاءِ ببعلبك موفّق الدين المُتوفَّىٰ سنة ٦٩٥[٥] هـ، وقرأ بالسبع أيضاً على المقرىء شمس الدين أبي عبد الله محمد بن منصور الحلبي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ، وكان الحلبيُّ هذا من المتصدِّرين بالعادلية وبالجامع الأموي[٦]. وقرأ كتابَ «المُبْهِج في القراءات السبع[٧]» لسبط الشيخ أبي منصور الخياط البغدادي، و«السبعة» لابن مُجاهد، وغيرهما على

---

(١) الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٣٦.
(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٣١.
(٣) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٣٩
(٤) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٣٩.
(٥) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٧٤.
(٦) المصدر السابق، م ٢ الورقة ٦٥ ـ ٦٦.
(٧) عندي منه نسخة مصورة عن نسخة معهد إحياء المخطوطات (رقم ٧٥ قراءات وتجويد) وهو كتاب نفيس للغاية.

شيخه أبي حفص عمر ابن القواس المتوفىٰ سنة ٦٩٨ هـ، وسمع «الشاطبية» من غيرِ واحدٍ من القُرَّاء[١].

وتميَّز الشابُّ في دراسةِ القراءات، وبرع فيها براعةً جعلتْ شيخَهُ شمسَ الدين أبا عبد الله محمد بنِ عبد العزيز الدمياطي ثم الدمشقي الشافعي، وهو من المُقرئين المجوِّدين، يَتنازلُ له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة ٦٩٢ هـ، أو أوائل سنة ٦٩٣ هـ، حينما أصابه المرضُ الذي توفِّي فيه، وكان الذهبيُّ قد أكمل عليه القراءاتِ قبل ذلك[٢]، فكان هذا أول منصب علميٍّ يتولاه الذهبيُّ فيما نعلم، وإنْ لم يَدُمْ فيه أكثر من سنة واحدة[٣].

ب ــ الحديث:

وفي الوقت نفسه كان الذهبيُّ، وهو في الثامنةَ عشرةَ من عمره، قد مال إلى سماع الحديث، واعتنىٰ به عنايةً فائقةً[٤]. وانطلقَ في هذا العلم حتى طغىٰ على كل تفكيره، واستغرقَ كُلَّ حياته بعد ذلك، فسمع ما لا يُحصىٰ كثرةً من الكتب والأجزاء، ولقيَ كثيراً من الشيوخ والشيخات، وأُصيب بالشَّرَهِ في سماع الحديث وقراءتـه، ورافقه ذلك طيلةَ حياته، حتى كانَ يَسمعُ من أُناس قد لا يَرضى عنهم، قال في ترجمة علاء الدين أبي الحسن علي بن مظفر

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٣٥، ٦٩.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٤٨، توفي شيخه بعد ذلك في صفر من سنة ٦٩٣ هـ.

(٣) قال الذهبي في ترجمة محمد بن أحمد بن علي شمس الدين أبي عبد الله الرضي الحنفي من معرفة القراء: «ولما سافرتُ إلى بعلبك، سنةَ ثلاثٍ وتسعين، وتعوقتُ بالقراءة على الموفق، وثب على حلقتي، فأخذها لكوني لم أستأذن الحاكم في الغيبة، وهو الآن يُقرىء بالجامع» ص ٦٠٠.

(٤) السبكي: «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، ٩ / ١٠٢، والسيوطي: «طبقات الحفاظ»، الورقة ٨٤.

الإسكندراني، ثم الدمشقي، شيخ دار الحديث النَّفِيسية، المتوفَّىٰ سنة ٧١٦ هـ: «ولم يكن عليه ضوءٌ في دينه، حملني الشَّرَهُ على السماع من مثله، والله يسامحهُ كان يُخِلُّ بالصلوات، ويُرمَىٰ بعظائمِ الأمور[١]»، وقال في ترجمة شيخه شهاب الدين غازي بن عبد الرحمن الدمشقي المتوفَّىٰ سنة ٧٠٩ هـ: «وكان ذا سيرةٍ غير محمودة، فاللهُ يعفُو عنه، كتبَ عنه خلقٌ من أبناء البلد»[٢]، وقال في ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المتوفَّىٰ سنة ٧٠٦ هـ: «فقيرٌ مسكينٌ... ورأيتُهم يَذُمُّونه... روىٰ لنا عن خطيب مردا جزء البطاقة[٣]»، وذكر عن شيخه محمود بن يحيى التميمي الدمشقي المتوفَّىٰ سنة ٧٣٣ هـ أنه كان «سيءَ الحال، سفيهاً[٤]»، وقال عن أحد شيوخه: «لا ينبغي الروايةُ عنه، حكوا لي عنه مصائب[٥]»، وقال عن آخر: إنه كان «من عوام الطلبة»[٦]، وقال في ترجمة شيخه محمد بن النصير المؤذن المتوفَّىٰ سنة ٧١٥ هـ: «شُوَيخ عامي سمعنا منه، ولم يكن بذاك[٧]»، بل إنه ليذهبُ به حبُّه للحديث إلى القراءة على الصُّمِّ، فقد ذكر في ترجمة شيخه محمود بن محمد الخرائطي الصالحي الأصَمِّ المتوفَّىٰ سنة ٧١٦ هـ: «قرأتُ عليه بأقوىٰ صوتي في أذنه[٨]».

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ١٢.
(٢) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٢١.
(٣) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٣٠.
(٤) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٧٧.
(٥) المصدر نفسه، م ١ الورقة ٧٢.
(٦) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٥٥.
(٧) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٦٧.
(٨) المصدر نفسه، م ٢ الورقة ٧٦.

ثالثاً ـ رحلاته في طلب العلم:

كانَ الذهبيُّ يتحسَّرُ على الرحلة إلى البُلدان الأُخرىٰ، لِما لذلك من أهميةٍ بالغةٍ في تحصيلِ عُلُوِّ الإسناد، وقدَم السَّماع، ولقاءِ الحُفّاظ، والمذاكرة لهم، والاستفادة عنهم[١]. إلا أَنَّ والده لم يُشجعه على الرحلة، بل منعه في بعض الأحيان، قال في ترجمة أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن محمد بن وريدة البغدادي الحنبلي شيخ المستنصرية «٥٩٩ ـ ٦٩٧[٢] هـ»: «وقد هممتُ بالرحلة إليه، ثم تركتُه لمكان الوالد[٣]»، وقال في ترجمته من «معرفة القراء الكبار»: «وانفردَ عن أقرانه، وكنتُ أتحسَّرُ على الرحلة إليه، وما أتجسَّرُ خوفاً من الوالد، فإنَّه كان يمنعني[٤]»، وقال في ترجمة المَكِين الأسمر المُقرىء الإسكندراني المُتَوفَّىٰ سنة ٦٩٢ هـ: «ولما ماتَ شيخُنا الفاضلي، فازددتُ تلهُّفاً وتحسُّراً على لقيه، ولـم يكن الوالدُ يُمكِّنُني من السفر[٥]». ولم يكن الذهبيُّ ابناً عاقّاً يُخالف إرادةَ والده، لا سيما أَنَّ آدابَ طلب العلم تقتضي استئذان الأبوين في الرحلة[٦]، ووجوب طاعتهما وبرهما، وترك الرحلة مع كراهتهما ذلك وسُخطهما[٧]. ويبدو لنا أَنَّ الذهبيَّ

---

(١) راجع عن أهمية الرحلة: الخطيب البغدادي: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، «باب الرحلة في الحديث إلى البلاد النائية للقاء الحفاظ وتحصيل الأسانيد العالية» الورقة ١٦٨ ـ ١٦٩ (نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية ٣٧١١ ج ١).

(٢) الدكتور ناجي معروف: «تاريخ علماء المستنصرية»، ١ / ٣٤٢ ـ ٣٤٥.

(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٤.

(٤) الذهبي: «معرفة القراء»، ص ٥٥٦ وقال في «تاريخ الإسلام»: «وكنتُ في سنة أربع وتسعين وسنة خمس أتلَهَّفُ على لقيه، وأتحسر، وما يُمكنني الرحلةُ إليه لمكان الوالد ثم الوالدة» الورقة ٢٦٨ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٥١ وانظر أمثلة أخرىٰ في «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥.

(٦) الخطيب البغدادي: «الجامع لأخلاق الراوي»، الورقة ١٧٠.

(٧) الخطيب البغدادي: «الجامع»، الورقة ١٧١ ـ ١٧٥.

كان وحيدَ أبيه، أو كان هو البارزَ بين أبنائه في الأقل[١]؛ بحيث كان يخافُ عليه هذا الخوف كُلَّه.

ويظهرُ أنَّ والده قد سمحَ له بالرحلة حينما بلغَ العشرينَ من عُمُره، وذلك سنة ٦٩٣ هـ[٢]. على أنه سمح له برحلاتٍ قصيرة لا يُقيم في كلٍّ منها أكثرَ من أربعةِ أشهر[٣] في الأغلب، ويرافِقُهُ فيها بعضُ مَنْ يَعتمدُ عليهم[٤].

أ ـ رحلاتُه داخل البلاد الشامية:

تُشيرُ المصادرُ إلى رحلاتِ الذهبي عرضاً، ولكنها لا تُقدِّمُ لنا عنها الكثير. على أنَّنا استطعنا أنْ نتبيَّنَ أنَّ أولَ رحلةٍ له ربَّما كانت إلى بعلبك سنة ٦٩٣ هـ[٥] حيثُ قرأ فيها القرآن جَمْعَاً على الموفق النَّصيبي المتوفَّىٰ سنة ٦٩٥ هـ[٦]، وأكثرَ عن المُحدِّث الأديب الإمام تاجِ الدين أبي محمد المغربي، ثم البعلبكي، المتوفَّىٰ سنة ٦٩٦[٧]. وسوف نجدُه مرةً أخرىٰ في بعلبك سنة ٧٠٧[٨] هـ، وقد سمع في هاتين الرحلتين على كثيرٍ من شيوخ

---

(١) لم نقف على أخ لمحمد بن أحمد الذهبي في جميع الكتب المطبوعة والمخطوطة التي اطلعنا عليها، مع أن الذهبي كثير العناية بذكر أقربائه.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٦٥.

(٣) قال الذهبي في ترجمة شرف الدين أبي الحسين يحيى بن أحمد الجذامي الإسكندراني ـ وكان قد بلغ السابعة والثمانين من عمره، ووجد الذهبيُّ بعضَ صعوباتٍ وتأخيرٍ في قراءة القراءات عليه، فخاف أن يذهب وقته سدى ـ: «وكنتُ قد وعدتُ أبي، وحلفتُ له أني لا أُقيم في الرحلة أكثرَ من أربعة أشهر، فخفتُ أعقه» «معرفة القراء»، ص ٥٥٨.

(٤) كان والدهُ يُرافقه في رحلته إلى حلب سنة ٦٩٣ هـ وقد سمع معه فيها، وكان رفيقه في رحلته إلى البلاد المصرية سنة ٦٩٥ ابن أمه في الرضاع داود بن إبراهيم بن داود ابن العطار الفقيه الشافعي، وهو أكبر من الذهبي بثمانية أعوام «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٤٧).

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، ١ / الورقة ٦٥

(٦) ابن الجزري: «غاية»، ٢ / ٧١، الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٧٤.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧١، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥٢.

البلد[١]. ورحلَ بعدَ ذلك إلى حلب، وأكثرَ فيها عن علاء الدين أبي سعيد سنقر بن عبد الله الأرمني، ثم الحلبي، قال: «رحلتُ إليه، وأكثرتُ عنه، ونعم الشيخُ كان ديناً ومروءة وعقلاً وتعفُّفاً[٢]»، وسمع من جملةٍ من شيوخها[٣]. وتشير المصادرُ إلى أنه قد سمع ببلدان عديدة منها: حمص[٤]، وحماة[٥]، وطرابلس[٦]، والكرك[٧]، والمعرة[٨]، وبُصرىٰ[٩]، ونابلس[١٠]، والرملة[١١]، والقدس[١٢]، وتبوك[١٣].

ب ـ رحلته إلى البلاد المصرية:

على أن رحلةَ الذهبي إلى البلاد المصرية كانت من أبرز رحلاته

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٤، ٨٣، ٨٨، م ٢ الورقة ٩، ٧٢، ٧٤، ٨١.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٥٥، و «ذيل العبر»، ص ٣٦، السبكي: «طبقات» ٩ / ١٠٢، الطباخ: «أعلام النبلاء»، ٤ / ٥٤٠.

(٣) انظر مثلاً: الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٧، ٣٤، ٣٩، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٦٣، والصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٥.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٢، م ٢ الورقة ٦٨، ٨٢.

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧، ٢٢: ٢٩، م ٢ الورقة ٦، ٩ وذكر أنه نزل في مدرسة القاضي شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن منصور الإسكندراني الفقيه قاضي طرابلس «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢٢.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٦١، م ٢ الورقة ١٦، ٤٢ ـ ٤٣ وقد سمع بها سنة ٦٩٨ من قاضي القضاة عز الدين محمد بن سلمان الحلبي.

(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٩.

(٩) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٣.

(١٠) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٦، م ٢ الورقة ٧.

(١١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٤٧، والصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٥.

(١٢) الصفدي: «الوافي» ٢ / ١٦٥.

(١٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٦٥.

المبكرة، ويقول الدكتورُ صلاحُ الدين المنجد: إنه لا يُعرفُ متى سافر الذهبيُّ إلى مصر، ثم يقولُ: «ولعلَّ سفـره إلى مصر كان بُعيد وفاة أبيه سنة ٦٩٧ هـ، وقد عادَ سنة ٦٩٩ هـ[١]». واستند في ذٰلك على ما نقله ابنُ حجر عن مشيخة بدر الدين النابلسي الذي قال: «وأولُ ما ولي تصدير حلقة إقراء بجامع دمشق في أول رواق زكريا عوضاً عن شمس الدين العراقي الضرير المقرىء في المحرم سنة ٦٩٩ هـ بعد رجوعه من رحلته من مصر بقليل[٢]».

وقد استطعنا، نتيجةَ تَتَبُّعنا لنشاط الذهبي أن نُحدِّدَ رحلته إلى البلاد المصرية، وأنها كانت بين رجب وذي القعدة من سنة ٦٩٥ هـ، فقد تبيَّنَ أنه ابتدأَ سفرته في رجب سنة ٦٩٥ هـ متوجِّهاً إلى فلسطين، قال في ترجمة شيخته أُمِّ محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية المتوفاة سنة ٦٩٥ هـ: «وقد رحلتُ إلى لقيِّها، فماتت وأنا بفلسطين، في رجب سنةَ خمسٍ وتسعين وست مئة[٣]» وقال في ترجمتها من «تاريخ الإسلام»: «كنتُ أتلهَّفُ على لقيِّها، ورحلتُ إلى مصر، وعلمي أنها باقية، فدخلتُ فوجدتُها قد ماتت من عشرة أيام... تُوفيت يوم الجمعة سادس رجب وأنا بوادي فحمة[٤]»، وبذلك نستنتجُ أنه وصل إلى البلاد المصرية في السادس عشر من رجب سنة ٦٩٥ هـ.

وأول ما افتتح سماعه بمصر على شيخه جمالِ الدين أبي العباس أحمد ابن محمد بن عبد الله الحلبي المعروف بابن الظاهري[٥] «٦٢٦ ـ ٦٩٦ هـ»،

---

(١) انظر مقدمته للجزء الذي طبعه من سير أعلام النبلاء، ١ / ١٨.
(٢) ابن حجر: «الدرر»، ٣ / ٤٢٧.
(٣) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥٩.
(٤) الورقة ٢٤٦ (أيا صوفيا ٣٠١٤) ولم يذكر ياقوت وادي فحمة هذا.
(٥) كان والدُه محمد مولى الملك الظاهر صاحب حلب، فنسب إليه.

قال في «تاريخ الإسلام»: «وبه افتتحتُ السماعَ في الديار المصرية، وبه اختتمتُ، وعنده نزلتُ، وعلى أجزائه اتكلتُ. وقد سمع منه علمُ الدين (يعني البرزالي) أكثر من مئتي جزء[١]»، وقال في ترجمته من «معجم شيوخه»: «ودَّعتُه في ذي القعدة سنة خمس وتسعين، فقال لي: قُل للجماعة يجعلوني في حِلٍّ...[٢]». وطبيعيٌّ أن يرجع الإمام الذهبيُّ في ذي القعدة من السنة لأنَّه كان قد وعد أباه، وحلفَ له أنه لا يُقيم في الرحلة أكثرَ من أربعةِ أشهر، فخاف أن يَعُقَّه إذا تأخَّر[٣]. وقد تُوفِّي ابنُ الظاهري بعد ذلك في ربيع سنة ٦٩٦[٤] هـ. وقد ذكر مُترجمو الذهبي أنه سمع من الحافظ ابن الظاهري[٥] فكيفَ يصحُّ القولُ عندئذ أنه سافر بُعيد ٦٩٧ هـ!؟ وسمع بمصر بعد ذلك من جماعةٍ كبيرةٍ، من أشهرهم: مُسندُ الوقت أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد الأبرقوهي[٦] المتوفَّى سنة ٧٠١ هـ[٧]، وشيخُ الإسلام المجتهد قاضي القضاة تقيُّ الدين أبو الفتح محمد بن علي المعروف بابن

---

(١) الورقة ٢٥٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٢) م ١ الورقة ١٨.

(٣) الذهبي: «معرفة القراء»، ص ٥٥٨.

(٤) الذهبي: «تاريخ الإسلام» الورقة ٢٥٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤)، و«معجم الشيوخ» م ١ الورقة ١٨، ابن الجزري: «تاريخ»، م ٢ الورقة ٦٠ (باريس ٦٧٣٩).

(٥) أنظر مثلاً: السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢، وسبط ابن حجر: «رونق الألفاظ»، الورقة ١٨٠.

(٦) نسبة إلى (أبرقوه) بلد قرب يزد؛ ياقوت: «معجم البلدان»، ١ / ٨٥ وقد ولد بها حينما كان أبوه قاضياً عليها؛ الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٥.

(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ، م ١ الورقة ٥ و«ذيل العبر»، ص ١٨، السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢، ابن حجر: «الدرر»، ١ / ١١٠، ٣ / ٤٢٦، سبط ابن حجر: «رونق الألفاظ» (نسخة الخالدية)، الفاسي: «العقد الثمين»، ٣ / ١٥، ابن تغري بردي: «النجوم»، ٨ / ١٩٨ و«المنهل الصافي»، ١ / ٢١٨ وغيرها.

دقيق العيد القُشَيري المتوفَّىٰ سنة ٧٠٢ هـ[١] والعلامةُ شرفُ الدين عبدُ المؤمن بن خلف الدِّمياطي المُتَوفَّىٰ سنة ٧٠٥ هـ[٢]، وغيرهم[٣].

وفي أثناء وجوده بالبلاد المصرية رحل إلى الإسكندرية، وكان بها في شوال من السنة، قال في ترجمة شيخه أبي الحجَّاج يوسف بن الحسن التَّميمي القابسي ثم الإسكندراني: «وكنتُ في شوال هذه السنة في الإسكندرية وهو حيٌّ، وسمعتُ منه التجريد[٤]». ويظهر أنه سافر إليها في رمضان لأنه قرأ على صدر الدين سحنون ختمة لورش وحفص، وتوفي شيخه في الرابع من شوال سنة ٦٩٥ هـ[٥]. وفي ثغر الإسكندرية مضىٰ الذهبيُّ إلى أسندِ أهلِها في القراءات، الإمام شرفِ الدينِ أبي الحسين يحيى بن أحمد بن عبد العزيز ابن الصواف الجذامي الإسكندراني المقرىء المشهور «٦٠٩ ـ ٧٠٥[٦] هـ» فأُدخِل عليه، فوجده قد أَضَرَّ وأَصَمَّ، وهو في سبع وثمانين سنة، فقرأ عليه جُزءاً، ورفع صوتَه، فسمع، ثم كلَّمه في أَنْ يجمع عليه القراءات

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ ورقة ٥٥، و«ذيل العبر»، ص ٢١، و«تذكرة الحفاظ» ٤ /١٤٨١ ـ ١٤٨٤، ابن سيد الناس: «أجوبة»، الورقة ٦٥ (الإسكوريال ١١٦٠)، الأدفوي: «الطالع السعيد»، ص ٣١٧ ـ ٣٣٨، الصفدي: «الوافي»، ٤ / ص ١٩٣، ابن حجر: «رفع الإصر»، الورقة ١١٢ وغيرها.

(٢) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٧، و«تذكرة الحفاظ»، ٤ / ١٤٧٧ ـ ١٤٧٩، ابن شاكر: «فوات»، ٢ / ١٧، ابن كثير: «البداية»، ١٤ / ٤٠، ابن قاضي شهبة: «منتقى المعجم المختص»، الورقة ١٦٢ «(أوقاف)، الصفدي: «الوافي»، م ١٧ ورقة ٢٣٦، و«معجم شيوخه» لخصه وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ جورج فايدا وطبع بباريس سنة ١٩٦٢ م. وفي خزانة كتبي الجزء الثالث من إحدىٰ نُسَخه الخطية.

(٣) انظر مثلاً: الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢١، ٤٢، ٦٤، ٩٦.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢٥.

(٥) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤).

(٦) الذهبي: «ذيل العبر»، ص ٣٢، ابن حجر: «الدرر»، ٥ / ١٨٥ ـ ١٨٦، الجزري: «غاية»، ٢ / ٣٦٦، المقريزي: «السلوك»، ٢ / قسم ١ ص ٢١.

السبع، فوافق، وبدأ الذهبيُّ بالقراءة، فقرأ عليه الفاتحةَ وآياتٍ من البقرة والشيخ يردُّ الخلاف، ويردُّ رواية يعقوب وغيره، ولَّما ذكر له الذهبي أنَّ قصده القراءة بالسبع حسب، تخيَّل الشيخُ منه نقصَ المعرفة، وطلب منه أنْ يذهب إلى أحد تلامذته، قال الذهبيُّ: «وزهَّدني فيه أني كنتُ لا أدخل عليه إلا بمشقَّةٍ وأُمنع، ويؤذن لي مرة، وأيضاً فكنتُ لا أقرأ ربعَ حزبٍ جمعاً، حتى ينقطعَ صوتي لمكان صممه» فخاف الذهبيُّ ضياع الوقت القصير، فتركه[١]، وذهبَ إلى الإمام المُقرىء صدر الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدِ الحليمِ بنِ عِمران الدكالي المعروف بسحنون «٦١٠ - ٦٩٥ هـ[٢]» وكان قد ضَعُفَ وأَضَرَّ، فختم عليه بقراءتَي ورش وحفص، في مدة أحد عشر يوماً مع جماعةٍ من رفاقه[٣]. وسمع بالإسكندرية من جملةٍ من علمائها المتميزين[٤] من أبرزهم: تاجُ الدين أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن عبد المحسن الهاشمي الحسيني الواسطي الغَرَّافي ثم الإسكندراني «٦٢٨ - ٧٠٤ هـ» شيخُ دار الحديث النبيهية بالإسكندرية[٥] كما رحلَ إلى بلبيس، وسمع بها[٦]. لقد كانت هذه الرحلةُ قصيرةً، وكان الذهبيُّ يُجْهدُ نفسَهَ في قراءةِ أكبرِ كميةٍ مُمكنة على شيوخِ تلك البلاد؛ فقد ذكرَ مثلاً أنه قرأَ جَميع سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط[٧].

---

(١) الذهبي: «طبقات القراء»، ص ٥٥٨، و«معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٨٤.

(٢) الذهبي، «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٣.

(٣) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٧ (أيا صوفيا ٣٠١٤) و«معرفة القراء» ص ٥٥٥.

(٤) انظر مثلاً «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٢١، ٢٢، ٧٥، ٨٦، م ٢ الورقة ١٧، ٦٠، ٧٤، ٨٣، ٨٥.

(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٢ - ٣، و«ذيل العبر»، ص ٢٨ - ٣٢، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ٩٤، ابن حجر: «الدرر»، ج ٣ ص ٨٥ - ٨٦، المقريزي: «السلوك»، ٢ / ص ١٣. وانظر أيضاً: السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.

(٦) الصفدي: «الوافي»، ٢ / ١٦٤.

(٧) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ١٣٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

جـ ـ رحلته للحج وسماعه هناك:

وفي سنة ٦٩٨ هـ، أي بُعيد وفاة والده رحل الذهبيُّ للحج، قال في حوادث السنة من «تاريخ الإسلام»: وحجَّ بنا الأمير شمسُ الدين العينتابي[١]»، وكان يرافِقُه في حَجِّه جماعةٌ من أصحابه وشيوخه[٢]، منهم شيخُ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية[٣] العالم المسندُ أبو عبد الله محمد ابن عبد المحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي «٦٣٨ ـ ٧٢٨ هـ»، وكان ابنُ الخرَّاط قد قدم دمشقَ في تلك السنة، وجلس للوعظِ بدمشق في شهر رمضان[٤]، قال الذهبيُّ: «ورافقنا في الحج، فسمعتُ منه بالعُلى ومعان كتاب «الفرج بعد الشدة»[٥]. وقد سمع بمكة[٦]، وعرفة[٧]، ومنى[٨]، والمدينة[٩] من مجموعة من الشيوخ.

---

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٣ (أيا صوفيا ٣٠١٤).
(٢) انظر مثلاً: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٧٢، م ٢ الورقة ١٦.
(٣) الدكتور ناجي معروف: «تاريخ علماء المستنصرية»، ١ / ٣٥٤ ـ ٣٦٠.
(٤) ذكر ذلك علم الدين البرزالي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ ابن رجب: «الذيل»، ٢ / ٣٨٥ والذهبي في «معجم شيوخه»، م ٢ الورقة ٥٠.
(٥) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٥٠ والكتاب المذكور للتنوخي كما هو معروف.
(٦) السبكي: «طبقات»، ٩ / ١٠٢.
(٧) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ١ الورقة ٨٠.
(٨) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ١ الورقة ٨٣، ٨٤.
(٩) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م ٢ الورقة ٥٠.

رابعاً ـ طبيعة دراساته:

لم ينقطع الذهبيُّ طيلةَ حياته عن الدراسة والسماع لا يشغَلُه عنهما شاغل، تدلُّ على ذلك معجماتُ شُيوخه لا سيما «المعجم الكبير». وكانت دراستُه وسماعاتُه متنوِّعةً لم تقتصر على القراءات والحديث.

وقد عُني بدراسةِ النَّحو، فسمع «الحاجبية» في النحو على شيخهِ موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء النَّصيبي البعلبكي المتوفى سنة ٦٩٥هـ[١]. ودَرَس على شيخِ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك الشيخ بهاءِ الدين محمد بنِ إبراهيم المعروف بابن النَّحَّاس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ[٢]. إضافَةً إلى سماعه لعددٍ كبيرٍ من مجاميع الشعر واللغة والآداب[٣].

واهتم بالكُتُب التاريخية، فسمع عدداً كبيراً منها على شيوخه، في المغازي[٤]، والسيرة[٥]، والتاريخ العام[٦]، ومُعجمات الشيوخ والمشيخات[٧]، وكتب التراجم الأخرى[٨].

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٧٤.

(٢) المصدر نفسه، م٢ الورقة ٣٠، «وتاريخ الإسلام»، الورقة ٢٨٧ (أياصوفيا ٣٠١٤).

(٣) انظر مثلاً «تاريخ الإسلام»، ٣ /٦٥ (مطبوعة) والورقة ١١٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /٩) والورقة ١٥٧ (أيا صوفيا ٣٠٠٨) والورقة ٤٩ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١٠) «ومعجم الشيوخ» م٢ الورقة ٥٠

(٤) انظر مثلاً «تاريخ الإسلام»، ٦ /١٣٣ (مطبوعة).

(٥) انظر مثلا «تاريخ الاسلام»، الورقة ١٣٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٧).

(٦) المصدر نفسه، مثلاً الورقة ١٩٨ (حلب).

(٧) انظر مثلاً «معجم الشيوخ» م١، الورقة ١٥، ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٣٣، ٤٢، ٤٦، ٥٥، ٨٠ م٢ الورقة ٩، ١٠، ٥٠، ٧١، ١٠٠، «وتاريخ الإسلام»، الورقة ٩٦ (أيا صوفيا ٣٠٠٨) والورقة ٢٢ (أيا صوفيا ٣٠٠٩) والورقة ٤ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١٠) والورقة ١٨٥ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١١).

(٨) مثلاً «تاريخ الإسلام» الورقة ٦٨، ٧٩ (أيا صوفيا ٣٠٠٢) وغيرها.

إلا أنَّ عنايَته الرئيسةَ في السماع كانت مُنْصَبَّةً على الحديث؛ فقد سمع الذهبيُّ مئاتِ الكتب والأجزاء الحديثية طيلَة حياته في طلب العلم ، يعرفُ ذلك من يقرأُ مُعجماتِ شُيُوخه وكتبه بِروِيَّةٍ وإمعان، فضلاً عن أنَّ هذه الكتب والأجزاء هي ليستْ كُلَّ ما قرأ الذهبيُّ على شيوخه، فهناك العددُ الهائلُ من الأحاديثِ النبويةالشريفة لم يُورِد في معجمات شيوخه منها إلا أمثلةً حسب. يُضافُ إلى ذلك أنَّه كان ربّماسمع الكتابَ أو الجزءَ على أكثَر من شيخٍ حتى يبلُغ في بعضها عشراتِ المرات أو عدداً كبيراً منها، ولنضربْ لذلك بعض الأمثلة؛ فقد سمع «جُزء الحسن بن عرفة» وهو من الأجزاء الحديثية المشهورة أكثر من أربعين مرة على أكثر من أربعين شيخاً[١]، وسمع «نسخة أبي مُسْهر» عبد الأعلى بن مُسْهر المتوفَّى سنة ٢١٨[٢] أكثر من اثنتي عشرة مرة[٣]، وسمع«جزء ابن فِيل[٤]» لأبي طاهر الحسن بن أحمد بن فيل البالِسي علىأكثر منعشرة من الشيوخ[٥].

وأرىٰ من الواجب أن أُشير إلىٰ أنَّ الذهبي لم يُعْنَ بذكر مسموعاته بصورةٍ مفصلةٍ في معجم شيوخه كما فعلَ ابنُ حَجَر مثلاً في «المعجم المفهرس»الذي رتَّبه

---

(١) انظر الذهبي: «معجم الشيوخ» ، م١ الورقة ٩ ، ١٦، ١٧، ٣٣، ٣٦، ٣٨، ٤٩، ٥٣، ٦٤، ٧٢، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٦، م٢ ورقة ٨، ١١، ١٣ ، ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٧ ، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٩، ٧٧، ٧٩، ٨٢، ٨٥ ٨٦، ٨٨، ٩٨، ١٠٠.

(٢) منه نسخة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٥٥١ ب .

(٣) انظر الذهبي: «معجم الشيوخ» م١ الورقة ٣٨، ٥٠، ٦٦، ٧٢، ٧٥، م٢ورقة ٢٠، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٥١، ٦٥.

(٤) منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٥٦٨ب.

(٥) انظر الذهبي : «معجمالشيوخ»، م١ الورقة ٦، ٢٠، ٧٢، ٧٤، م٢ الورقة ٣١، ٣٧، ٥٣، ٧٧، ٨٨.

أساساً على الكتب[١]، وفي «المجمع المؤسس» الذي رتبه على الشيوخ ولكن ذكر فيه المرويَّاتِ أيضاً[٢]. ومع ذلك فإنَّ المروياتِ لا تمُثِّلَ أصلاً دراساتِ الطالب أو العالم؛ لأنَّ الكتب المرويَّةَ محدودةٌ عموماً، بينما يستطيع الطالبُ أنْ يقرأَ ما يشاءُ من الكتب الفقهية والتاريخية والأدبية ودواوين الشعراء ونحوها وطائفة كبيرة منها لا تُروى.

على أننا نستطيعُ القول من دراستنا لكتب الذهبي واهتماماته، أنه عُني بالعلومِ الدينية عموماً، والعلومِ المساعدةِ لها كالنحو واللغة والأدب والشعر. كما أنه اطَّلعَ على بعض الكتب الفلسفية. ونشكُّ أنه درس كتباً في العلوم الصرفة لعدم اعتقاده بجدواها.

---

(١) ابن حجر: «المعجم المفهرس» (دار الكتب ٨٢ مصطلح الحديث).

(٢) نسختي المصورة(عن دار الكتب ٧٥ مصطلح الحديث).

obeikandl.com

خامساً ـ صلاته الشخصية وأثرها في تكوينه الفكري

اتصل الذهبيُّ اتصالاً وثيقاً بثلاثةٍ من شيوخ ذلك العصر وهم جمالُ الدين أبو الحجَّاج يوسفُ[١] بن عبد الرحمن المِزِّي الشافعي «٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ»، وتقيُّ الدين أبو العباس أحمد[٢] بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحَرَّاني، «٦٦١ ـ ٧٢٨هـ» وعلمُ الدين أبو محمد القاسم[٣] بن محمد البرزالي «٦٦٥ ـ ٧٣٩هـ»، وترافَقَ معهم طيلةَ حياتهم. وكان الذهبيُّ أصغرَ رفاقه سِنّاً، وكان أبو الحجَّاج المِزِّي أكبَرهم. وكان بعضُهم يقرأُ على بعض؛ فهم شيوخٌ وأقرانٌ في الوقت نفسه.

وقد ساعد من شدِّ أواصر هذه الرفقة اتجاهُهم نحو طلب الحديث منذ فترةٍ مبكرةٍ، وميلُهم إلى آراء الحنابلة ودفاعهم عن مذهبهم، مع أن المِزِّيَّ والبِرْزاليّ

---

(١) راجع الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٩٠، و«تذكرة الحفاظ»، ٢/١٤٩٨، الحسيني: «الذيل على ذيل العبر»، ص ٢٢٩، السبكي: «طبقات»، ٦/٢٥١ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية» ١٤/ ١٩١ ـ ١٩٢، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٨، و«التبيان» الورقة ١٦٦، ابن حجر: «الدرر»، ٥/٢٣٣ ـ ٢٣٧، ابن تغري بردي: «النجوم» ١٠/٧٦، ابن طولون: «المعزة»، ص ١٠، ابن العماد: «شذرات»، ٦/ ١٣٦، الكتاني: «فهرس» ١/ ١٠٧. وراجع ما كتبناه في سيرته في مقدمة المجلد الأول من تهذيب الكمال.

(٢) ترجمةُ شيخ الإسلام ابن تيمية معروفةٌ تناولها معظمُ المؤرخين الذين تناولوا عصره ومنهم الذهبي. ومن الذين كتبوا عنه مفرداً ابنُ ناصر الدين في «الرد الوافر» (بيروت ١٣٩٣هـ) وابنُ قُدامة: «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية». ومن المحدثين: محمد كرد علي في «ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية» (لم يذكر مكان الطبع ولا تاريخه) ومحمد بن بهجة البيطار في «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (دمشق ١٩٦١) ومحمد أبو زهرة: «ابن تيمية، حياته وعصره، آراؤه وفقهه» (القاهرة ١٩٥٢).

(٣) انظر الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٢٥، «ذيل العبر» ص ٢٠٩، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ»، ص ١٨ ـ ٢١، السبكي: «طبقات» ٦/٢٤٦ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية»، ١٤/١٨٥، ابن شاكر: «فوات»، ص ١١٩، ابن حجر: «الدرر» ٣/٣٢١ ـ ٣٢٣، ابن تغري بردي: «النجوم» ٩/٣١٩، ابن العماد: «شذرات»، ٦/ ١٢٤.

والذهبي كانوا من الشافعية. وكان كلُّ واحدٍ منهم محُباً للآخر ذاكراً فضله. ويذكر الذهبي جيداً أنَّ عَلَم الدين البرزالي هو الذي حَبَّب إليه العنايةَ بالحديث النبوي الشريف؛ فقال في «معجم شيوخه الكبير»: «الإمامُ الحافظُ المتقنُ الصادقُ الحجةُ مفيدُنا ومُعلِّمُنا ورفيقُنا محدِّث الشام مؤرخ العصر[١]»، وقال في موضع آخر: «وهو الذي حَبَّب إليَّ طلب الحديث، فإنَّه رأى خطي، فقال: خَطُّكَ يُشبِهُ خط المحدثين! فأثَّر قولُه فيَّ، وسمعتُ منه، وتخرَّجتُ به في أشياء[٢]»، وكان على غايةٍ من الإعجاب بعلمه، ولا سيما «معجم شيوخه»[٣] الذي خَرَّجه لنفسه، وفيه ثلاثة آلاف شيخ، منهم ألفان بالسماع وألف بالإجازة[٤].

وكتب الذهبيُّ عن شيخه ورفيقه المزي بأنه: «العلامةُ الحافظُ البارعُ أستاذُ الجماعة... مُحدِّثُ الإسلام»[٥] وأنه كان «خاتمةَ الحفَّاظ وناقدَ الأسانيد والألفاظ وهو صاحب معضلاتنا وموضح مشكلاتنا[٦]».

أما ابنُ تيمية، فكانت شخصيتُه قد اكتملت منذ أن كان الذهبيُّ شاباً في أول طلبه العلم، وكان قد أصبح مجتهداً، له آراؤه الخاصة التي تقومُ في أصلها

---

(١) الذهبي: «معجم الشيوخ» م ٢ الورقة ٢٥.

(٢) ابن حجر: «الدرر» ٣ / ٣٢٣.

(٣) نظم الذهبي في هذا المعجم بيتين من الشعر، قال:

إن رُمتَ تفتيشَ الخزائن كلها ... وظهور أجزاءٍ حوت وعوالي
ونعوت أشياخ الوجودِ وما رَوَوا ... طالعْ أو اسمعْ مُعجم البرزالي

ابن حجر: «الدرر»، ٣/٣٢٢، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٠.

(٤) الذهبي: «معجم الشيوخ»، م٢ الورقة ٢٥، و«ذيل العبر»، ص ٢٠٨، ابن حجر: «الدرر»، ٣/٣٢٢، ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ١٢٠.

(٥) «معجم الشيوخ» م٢ الورقة ٧٠، وانظر «تذكرة الحفاظ» ٤ / ١٤٩٨ - ١٤٩٩.

(٦) ابن حجر: «الدرر» ٥/ ٢٣٥ - ٢٣٦.

على اتِّباع آثار السلف، وابتدأ منذُ سنة ٦٩٨هـ يدخلُ في خصوماتٍ عقائدية حادَّةٍ مع عُلماء عصره من المُخالفين له[١]، ويُقيم الحدودَ بنفسه، ويحلِقُ رؤوس الصبيان[٢]، ويُحارِبُ المشعوذين من أدعياء التصوف[٣]، ويمنعُ من تقديم النذُور[٤]، ويدور هو وأصحابُه على الخمَّارات والحانات، ويُرِيقُ الخمور[٥]، ويقاتِلُ بعضَ من يعتقدُ فسادَ عقيدته[٦]، ويشتطُّ على القضاة[٧]، بل بلغ الأمرُ به في إحدى المرات أن دخل السجنَ، وأخرج رفيقَه المِزِّيَّ منه بنفسه[٨]. وظهرتْ شخصيتُه السياسيةُ في الحرب الغازانية سنة ٦٩٩ هـ وما بعدها، لاسيما سنة ٧٠٢هـ فقد كان له الدور البارز في انتصار المماليك على المغول في وقعة شقحب[٩].

وقد أحبَّ الذهبيُّ شيخَهُ ورفيقَه، وأُعجِبَ به، فقال بعد أن مدحه مدحاً عظيمًا: «وهو أكبرُ من أَنْ يُنبِّه مثلي على نعوته، فلو حُلِّفتُ بين الرُّكن والمَقام لحلفتُ؛ أني ما رأيتُ بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثلَ نفسه في العلم[١٠]». ولما ماتَ،

---

(١) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٢ (أيا صوفيا ٣٠١٤)، الصفدي: «الوافي»٥/٢٢، ابن كثير«البداية»١٤/٤، ابن حجر: «الدرر»١/١٥٥.

(٢) ابن كثير: «البداية»، ١٤/١٩.

(٣) الصفدي: «الوافي»٥/١٨، ابن كثير: «البداية»١٤/٣٣، وانظر فتواه في «الصوفية والفقراء»(نشرها رشيد رضا بالقاهرة ١٣٤٨ ط٢).

(٤) ابن كثير: «البداية»١٤/٣٤.

(٥) المصدر نفسه، ١٤/١١

(٦) المصدر نفسه ١٤/١٢.

(٧) ابن حجر: «الدرر»١/١٥٦

(٨) السبكي: «طبقات» ٦/٢٥٤ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن كثير: «البداية» ١٤/٣٧، ابن حجر: «الدرر» ٥/٢٣٤.

(٩) الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٣٣٤ فما بعد(أيا صوفيا ٣٠١٤)، الصفدي: «أعيان العصر»٨/ الورقة ١ ـ ٧ (أيا صوفيا ٢٩٦٨)، ابن كثير: «البداية»١٤ /٩ فما بعد.

(١٠) ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ٣٥، وقارن ابن حجر: «الدرر» ١/١٦٨ ـ ١٦٩.

رثاه بقصيدةٍ[١]، وذكر أنَّ مصنفاته قد جاوزت الألف[٢]، وبالغ في ذكر مساوىء من حط عليه مثل الأمير سيف الدين تنكز[٣] نائب الشام.

ولم تكن محبةُ رفيقيه وإعجابهُما بابن تيمية بأقلَّ من محبة الذهبي له، بل ربما كان المِزِّيُّ أكثرهم إعجاباً ومحبةً له مع أنه أكبرُ منه سِناً[٤].

ومع أنَّ الذهبِيَّ قد خالف رفيقَه وشيخَه «في مسائل أصلية وفرعية[٥]»وأرسل إليه نصيحتَه الذهبية[٦] التي يلومه، وينتقدُ بعضَ آرائه وآراء أصحابه بها، إلا أنه بلا ريب قد تأثَّر به تأثُّراً عظيمًا، بحيثُ قال تاجُ الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ: «إنَّ هذه الرفقة المِزِّي والذهبي والبِرْزالي أَضَرَّ بها أبو العباس ابن تيمية إضراراً بيِّناًوحمَّلها من عظائم الأمور أمراً ليس هيِّناً، وجرَّهم إلى ما كان التباعدُ عنه أولى بهم[٧]».

إنَّ هذه الصلةَ بين الرُّفقة، وما اختطُّوه لأنفسهم فيما ارتضوه، ومالوا إليه من آراء الحنابلة، قد أدت في كثير من الأحيان إلى إيذائهم والتحامُل عليهم بما

---

(١) ابن ناصر الدين: «بديعة الزمان»، الورقة ١٦٥، و«الردّ الوافر» ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) ابن ناصر الدين: «الرد الوافر»، ص ٣٥، وقارن ابن حجر: «الدرر» ١/ص ١٦٠. وقال الصفدي: «ومَنْ الذي يأتي على مجموعها!» وذكر منها جملة كبيرة «الوافي» ٥ / ٢٣ - ٣٠.

(٣) ابن حجر: «الدرر»، ١/ ٦١. وعاتب الذهبيُّ تلميذَه تاجَ الدين السبكي بسبب كلامٍ وقع منه في ابن تيمية، فاعتذر منه السبكي برسالةٍ أرسلها إليه.ابن حجر: «الدرر»، ١/ ١٦٩.

(٤) انظر أقوال المزي في ابن تيمية في كتاب«الرد الوافر» ص١٢٨ -١٣٠ وأقوال البرزالي في الكتاب نفسه ص ١١٩ -١٢٣. وكان ابن تيمية شديد الإعجاب بالمزي، فلما باشر دار الحديث الأشرفية بعد الشريشي، قال ابنُ تيمية: «لم يلها من حين بُنيت إلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه»انظر: ابن كثير: «البداية»، ١٤/ ٨٩، ابن حجر: «الدرر» ٥/ ٢٣٤، النعيمي: «تنبيه»، ١/ ٣٥.

(٥) ابن حجر: «الدرر» ١/ ١٦٦.

(٦) الذهبي: «النصيحة الذهبية لابن تيمية»(دمشق ١٣٤٧هـ).

(٧) السبكي: «طبقات»٦/ ٢٥٤ (القاهرة ١٣٢٤هـ).

ليس فيهم. وقد أُوذِي المِزِّيُّ بسبب ذلك[١]، وحُرِمَ الذهبيُّ بسبب آرائه من توليِّ أكبر دارٍ للحديث بدمشق، هي دار الحديث الأشرفية[٢] التي شغرت مشيختُها بعد وفاة رفيقه المِزِّي سنة ٧٤٢هـ، فأشار قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، فتكلم الشافعيةُ بأن الذهبي ليس بأشعري، وأن المِزِّيَّ ما وليها إلا بعد أن كتب بخطِّه، وأشهد على نفسه بأنه أشعري، واتّسع النقاشُ بينهم، ورفض الشافعيةُ أن يتولاَّها الذهبيُّ بعد أن جمعهم نائبُ الشام ألْطنبغا بالرغم من إلحاح السبكي، ولم يُحْسَمِ الأمرُ إلا بتولية السبكي نفسه[٣]. ثم أثَّرت صلةُ الذهبي بابن تيمية فيما اختصر[٤] أو ألَّف[٥] من كتب، وفي بلورة بعض آرائه، وحبِّه للحنابلة[٦]، وموقفه من بعض المتصوفة[٧] ولا سيما طائفة الأحمدية، أتباع الشيخ أحمد الرفاعي[٨]. وهو يذكرُ

---

(١) من ذلك ما حدث سنة ٧٠٥هـ حينما وقعت المناظرة بين ابن تيمية والشافعية فقرأ الشيخُ جمالُ الدين المزي فصلاً بالرد على الجهمية من كتاب خلق أفعال العباد للبخاري تحت قبة النسر بعد قراءة ميعاد البخاري، فغضب بعضُ الفقهاء الحاضرين، وشكاه إلى القاضي الشافعي ابن صَصْرَى، وكان من أعداء ابن تيمية، فأمر بسجن المزي، ولما بلغَ ابنَ تيمية ذلك، تألَّم كثيراً، وذهب إلى السجن، فأخرجه منه بنفسه، فغضب نائبُ دمشقَ فأعيد المِزِّيُّ، ثم أُفرج عنه. ابن كثير: «البداية» ١٤/٣٧، ابن حجر: «الدرر» ٥/٢٣٤).

(٢) منسوبة إلى الملك الأشرف ومظفر الدين موسى ابن العادل الأيوبي، ابتدأ عمارتها سنة ٦٢٨هـ، وافتتحت سنة ٦٣٠هـ، وأول من وليها محدثُ عصره الشيخ تقي الدين ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ انظر الذهبي: «تاريخ الإسلام»، الورقة ٢٤٣ (أيا صوفيا ٣٠١٢)، والنعيمي: «تنبيه الدارس» ١/١٩ فما بعد.

(٣) السبكي: «طبقات الشافعية»، ٦/١٧٠ ـ ١٧١ (القاهرة ١٣٢٤)، ابن قاضي شهبة: «طبقات الشافعية»، الورقة ١٠٥ (أحمد الثالث ٢٨٣٦).

(٤) من ذلك مثلاً «المنتقى من منهاج الاعتدال لشيخه ابن تيمية (وانظر القسم الخاص بكتبه).

(٥) من ذلك مثلاً كتاب «العلو» (وانظر القسم الخاص بكتبه)

(٦) الذهبي: «معجم الشيوخ» م١ ورقة ٤.

(٧) قال في ترجمة شيخه بهاء الدين أبي المحاسن عبد المحسن بن محمد المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٧٠٤هـ: «وكان يدخل في ترهات الصوفية» «معجم الشيوخ»، م١ الورقة ٨٥

(٨) قال في ترجمة ثعلب بن جامع الصعيدي الأحمدي الباز دار المتوفى سنة ٧٢٥هـ: «كان من كبار الأحمدية، وله أتباع، ثم أنه تاب وترك تلك الرعونات» «معجم الشيوخ» م١ الورقة ٤٠.

أنَّ علم المنطق «نفعُه قليلٌ وضررُه وبيلٌ وما هو من علوم الإسلام[١]»ويقولُ عن الفلسفة: «الفلسفةُ الإلٰهية ما ينظرُ فيها من يُرجىٰ فلاحُه، ولا يركنُ إلى اعتقادها من يلوحُ نجاحه؛ فإنَّ هذا العلم في شق، وما جاءت به الرُّسُل في شق، ولكن ضلال مَن لم يدر ما جاءت به الرسلُ كما ينبغي بالحكمة أشرُّ ممن يدري، واغَوْثاه بالله إذا كان الذين قد انتدبوا للردّ على الفلاسفة قد حاروا، ولحقتهم كسفة، فما الظن بالمردود عليهم[٢]؟!».

ثم كان لهذه الرفقة، أعني رفقة ابن تيمية، أن جعلت بعضَ الناس يجدونَ فيها سبباً لطعنهم في كتاباته بسبب اعتقادهم بتحيُّزها[٣]. وقد أثارتْ هذه المطاعنُ نقاشاً بين علماء عصره، وعند العلماء الذين جاؤوا بعده[٤] وهو ما سوف نبحثُه عند كلامنا على منهجه في «سير أعلام النبلاء»[٥]

ومع أنَّ كثيراً من الانتقادات التي وُجِّهت إلى الذهبي بسبب العقائد كان يغلبُ عليها طابعُ التحامل والتعصب، إلا أننا في الوقت نفسه يجبُ أن نعترفَ بأنَّ تكوينَه الفكري العام قد ارتبط ارتباطاً شديداً بالحديث والمحدثين ونظرتهم إلى العلوم والعلماء وفسلفتهم تجاه العلوم العقلية، وقد أثَّر ذلك، كما سنرىٰ، في منهجه التاريخي تأثيراً واضحاً حينما ربطه بالحديث النبوي الشريف وعلومه، فاهتم اهتماماً كبيراً بالتراجم حتى صارت أساس كثير من كتبه، ومحور تفكيره.

---

(١) الذهبي: «بيان زغل العلم»، ص ٢٤ وقال في ترجمة أحد شيوخه: «ثم دخل في المنطق، فالله يسلم، ثم أقبل على شأنه» «معجم الشيوخ» م١ ورقة ٦٦ - ٦٧.

(٢) الذهبي: «بيان زغل العلم» ص ٢٥ - ٢٦ وانظر «معجم الشيوخ»م٢ الورقة ٤٩.

(٣) السبكي: «معيد النعم»، ص ٧٤، و«الطبقات»، ٢/١٣ - ١٥، ٢٢ - ٢٥، ٩/١٠٣.

(٤) السخاوي: «الإعلان»، ص ٤٩٩ فما بعد، وابن عبد الهادي: «معجم الشافعية» الورقة ٤٧ - ٤٨.

(٥) انظر الفصل الثاني.

سادساً ـ نشاطُه العلمي ومناصبه التدريسية:

بدأت حياةُ الذهبي العلمية في الإنتاج في مطلع القرن الثامن الهجري كما يبدو، فبدأ باختصار عددٍ كبير من أمهات الكتب في شتىٰ العلوم التي مَارسها، ومن أهمِّها التاريخ والحديث. ثم توجَّه بعد ذلك إلى تأليف كتابه العظيم «تاريخ الإسلام» الذي انتهىٰ من إخراجه لأول مرة سنة ٧١٤[١] هـ.

وقد تولَّىٰ الذهبي في سنة ٧٠٣ هـ الخطابة بمسجد كفر بطنا[٢]، وهي قرية بغوطة دمشق[٣]، وظلَّ مقيماً بهاإلى سنة ٧١٨ هـ.

وفي هذه القرية الهادئة ألَّف الذهبي خِيرة كتبه، وقد ساعده على ذلك كما يبدو تفرُّغه التام للتأليف.

وفي شوال سنة ٧١٨ هـ تُوفِّي الشيخ كمال الدين أحمد بن محمد بن أحمد ابن الشريشي الوائلي، وكيلُ بيت المال، وشيخ دار الحديث بتربة أم الصالح وغيرها[٤]، وكانت هذه الدار من كُبرياتِ دور الحديث بدمشق آنذاك[٥]، تولاَّها كمال الدين ابن الشريشي مدة ثلاث وثلاثين سنة ابتداءاً من سنة ٦٨٥ هـ وإلى حين وفاته وكان والده قد تولاها قبله[٦].

قال ابن كثير في حوادث سنة ٧١٨ هـ: «وفي يوم الاثنين العشرين من

---

(١) انظر الورقة الأخيرة من نسخة أيا صوفيا ٣٠١٤.

(٢) الحسيني: «ذيل العبر» ص ٢٦٩، ابن كثير: «البداية» ١٤ / ٢٨.

(٣) محمد كرد علي: «غوطة دمشق» ص ٢٤.

(٤) الذهبي: «ذيل العبر» ص ٩٩، ابن كثير: «البداية»، ١٤ / ٩١، النعيمي: «تنبيه الدارس» ١ / ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) النعيمي: «تنبيه» ١ / ٣١٦، وواقفها هو الصالح إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر.

(٦) ابن كثير: «البداية» ١٤ / ٨٨، ٩١، النعيمي: «تنبيه» ١ / ٣٤.

ذي الحجة باشر الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي المحدِّثُ الحافظُ بتربة أم الصالح عِوَضاً عن كمال الدين ابن الشريشي . . . وحضر عند الذهبي جماعة من القُضاة[١]». وقد اتخذها الذهبي سكناً له وبقي فيها إلى حين وفاته.

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة **٧٢٩** هـ وَلِيَ شمس الدين الذهبي دارَ الحديث الظاهرية[٢] بعد الشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل ونزل عن خطابة كفر بطنا[٣].

ولما توفِّي الشيخ علم الدين البِرْزالي، شيخُ الذهبي ورفيقه، سنة **٧٣٩** هـ، تولَّىٰ الذهبي تدريسَ الحديث بالمدرسة النفيسية وإمامَتها عوضاً عنه، وكتبَ له تلميذُه صلاح الدين الصفدي توقيعاً بذلك[٤].

وفي هذه السنة أيضاً، أعني سنة **٧٣٩** هـ، كَمُلَ تعمير دار الحديث والقرآن التنكزية[٥]، وباشرَ الذهبي مشيخَةَ الحديث بها[٦]. وقد أخطأ محيي

---

(١) ابن كثير: «البداية» ١٤ / ٨٨.

(٢) أسسها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٧٦ هـ، هي والمدرسة الظاهرية وهي اليوم مقر دار الكتب الظاهرية الواقعة قبالة المجمع العلمي العربي بدمشق، انظر عنها: النعيمي: «الدارس» ١ / ٣٤٨.

(٣) ابن كثير: «البداية» ١٤ / ١٤٣.

(٤) الصفدي: «الوافي» ٢ / ١٦٦ وتجد نص التوقيع في كتابه.

(٥) منسوبة إلى الأمير تنكز نائب الشام، وليها سنة ٧١٢ هـ ومات معتقلاً بالإسكندرية في أوائل سنة ٧٤١ هـ (الحسيني: «ذيل العبر» ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ابن حجر: «الدرر» ٢/ ٥٥ / ٦٢) قال ابن كثير في حوادث سنة ٧٣٩ هـ: «ومما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية (كذا والصحيح: التنكزية) وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الإمام الحافظ مؤ رخ الإسلام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وقرر للشيخ ثلاثون رطل خبز، وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤ ون القرآن لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين، ورتب لها إمام، وقارىء حديث، ونواب، ولقارىء الحديث عشرون درهماً وثمانيّ أواق خبز وجاءت في غاية الحسن. . . الخ، ١٤ / ١٨٤.

(٦) ابن كثير: «البداية» ١٤ / ١٨٤، النعيمي: «تنبيه» ١ / ١٢٣.

الدين عبد القادر النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ حينما جعل الذهبي يخلُف تقي الدين ابن تيمية في دار الحديث السُّكرية[١]، فترجمه فيها[٢] وكرَّر ذلك، مع أن الذهبي لم يتوَلَّ هذه الدار كما يبدو. ويظهر أن «التنكزية» تحرفت إلى «السكرية»[٣] فظن الرجل أنه تولاها، مع أنه ذكر أن الذهبي تولَّىٰ دار الحديث التنكزية ونقل النصوص الدالة نفسها، قال في دار الحديث السكرية بعد أن ترجم لشيخها تقي الدين ابن تيمية المتوفَّىٰ سنة ٧٢٨ هـ: «ثم وَلِيَها بعده الحافظ الذهبي وهو محمد... ثم وَلِيَ مشيخَةَ السكرية هذه بعدَه الصدرُ المالكي».

قال الشيخ شمس الدين السَّيِّد في «ذيل العبر» (في)[٤] سنة تسع وأربعين وسبع مئة: «والإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكم[٥] المالكي مدرس الشرابيشية وشيخ السكرية بعد الذهبي». انتهى.

وقال الصلاح الصفدي في «تاريخه» في حرف السين: «سليمان بن عبد الحكم... إلخ[٦]» ثم قال في «دار القرآن والحديث التنكزية» من كتابه بعد ذكر عمارتها ووقوفها: «قال السيد الحسيني في «ذيل العبر» في سنة تسع وأربعين (وسبع مئة)[٧]: والإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكم المالكي

---

(١) «تنبيه الدارس» ١ / ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) علماً بأنها محرفة في النسخة المطبوعة من «البداية والنهاية» (١٤ / ١٨٤) وهذه النسخة كثيرة الأغلاط كما هو معروف.

(٤) زيادة مني يقتضيها السياق.

(٥) هكذا في الأصل. وفي «ذيل العبر» (ص ٢٧٦) و «ذيل تذكرة الحفاظ» (ص ١١٩): عبد الحكيم. وهو الصحيح.

(٦) النعيمي: «تنبيه» ١ / ٧٧ ـ ٨٠.

(٧) زيادة من عندي يقتضيها السياق.

شيخهُم ومدرِّس الشرابيشية وشيخ التنكزية بعد الذهبي. انتهى. وقد تقدمت ترجمة الذهبي في دار الحديث السكرية.

وقال الصلاح الصفدي في «تاريخه» في حرف السين: «سليمان ابن عبد الحكم... إلخ[١]». وهذا النص الأخير هو الصحيح وهو الذي أورده الحسيني في «ذيل العبر»[٢].

إن هذا الاختلاط والتحريف بالنصوص جعل الدكتور صلاح الدين المنجد يذهب إلى القول بأن الذهبي خلَف ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ في دار الحديث السكرية وهو وَهْمٌ لا أساس له[٣].

ومن دُور الحديث التي تولاها الذهبي دارُ الحديث الفاضلية[٤]، التي أسَّسها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين المتوفَّىٰ سنة ٥٩٦ هـ.

وهكذا تولَّى الذهبيُّ كُبرياتِ دور الحديث بدمشق في أيامه، لِمَا وصل إليه من المعرفة الواسعة في هذا الفن. وحينما تُوفِّي سنة ٧٤٨ هـ كان يتولَّىٰ مشيخَةَ الحديث في خمسة أماكن هي:

١ ـ مشهد عروة، أو دار الحديث العُرويَّة، ودرَّس فيها بعده شرف الدين ابن الواني الحنفي، نَزَل الذهبي له عنها في مرض موته[٥].

---

(١) النعيمي: «تنبيه الدارس» ١ / ١٢٧.

(٢) الحسيني: «ذيل ذيل العبر» ص ٢٧٦.

(٣) مقدمة الجزء الذي طبعه من «سير أعلام النبلاء» ١ / ٢٢ والطريف أن ابن تيمية لم يكن متولياً لهذه المدرسة سنة ٧٢٨ فقد اعتقل في ١٦ شعبان سنة ٧٢٦ وظل معتقلاً بالقلعة إلى حين وفاته في ليلة العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ (ابن كثير: «البداية» ١٤ / ١٢٣، ١٣٥).

(٤) النعيمي: «تنبيه الدارس» ١ / ٩٤.

(٥) ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦ وهي منسوبة إلى شرف الدين محمد بن عروة الموصلي المتوفىٰ سنة ٦٢٠ هـ (النعيمي: «تنبيه الدارس» ١ / ٨٢).

٢ ـ دار الحديث النفيسية، وقد نزل الذهبي عنها إلى الشيخ شرف الدين ابن الواني الحنفي في مرض موته أيضاً فَدرَّس فيها في ذي القعدة[١].

٣ ـ دار الحديث التنكزية، ودَرَّس فيها بعده الإمام صدر الدين سليمان ابن عبد الحكيم المالكي كما مرَّ بنا قبل قليل[٢].

٤ ـ دار الحديث الفاضلية بالكَلاَّسة، ودَرَّس فيها بعده تلميذُه تقي الدين أبو المعالي محمد بْن رافع بن هجرس السَّلاَّمي المتوفَّىٰ سنة ٧٧٤ هـ[٣].

٥ ـ تربة أم الصالح، دَرَّس فيها بعده تلميذه الحافظ أبو الفداء عماد الدين ابن كثير الدمشقي المتوفىٰ سنة ٧٧٤ هـ[٤].

---

(١) ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦.

(٢) وانظر أيضاً ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦.

(٣) ابن قاضي شهبة: «الإعلام» الورقة ٨٦، والنعيمي: «تنبيه» ١ / ٩٤.

(٤) قال في كتابه «البداية والنهاية» في حوادث سنة ٧٤٨ هـ: «وفي يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة حضرتُ تربة أم الصالح ـ رحم الله واقفها ـ عوضاً عن الشيخ شمس الدين الذهبي، وحضر جماعة من أعيان الفقهاء وبعض القضاة، وكان درساً مشهوداً ولله الحمد والمنة... إلخ» ١٤ / ٢٢٥.

obeikandl.com

سابعاً ـ منزلة الذهبي العلمية:

لعلَّ خير ما يصوِّر منزلة الذهبي العلمية واتجاهاتِه الفكريةَ هو دراسة آثاره الكثيرة التي خَلَّفها، وتِبيّانُ قيمتها مُقارنةً بمثيلاتها، ومدى اهتمام العلماء والدارسين بها في العصور التالية، والمساهمة الفعلية التي قدَّمتها للحضارة الإسلامية.

وسيرة الذهبي العلمية، استناداً إلى آثاره، ذاتُ وجوه متعددة يستبينُها الباحث الفاحص من نوعيَّة تلك الآثار.

وأول ما يُلاحظ الدارسُ هذا العدد الضخمَ من الكتب التي اختصرها والتي تُربي على خمسين كتاباً، مُعظمها من الكتب الكبيرة التي اكتسبت أهمية عظيمة عند الدارسين، والتي تُعدُّ من بين أحسن الكتب التي وُضعت في عصرها وأكثرها أصالة، مما يدل على استيعاب الذهبي لمؤلفات السابقين، ومعرفته بالجيد الأصيل منها، وتمتُّعه بقدرةٍممتازة علىالانتقاء.

ومما يثير الانتباه أن مختصرات الذهبي لم تكن اختصارات عادية يغلب عليها الجمود والنقل، بل إن المطَّلع عليها الدارسَ لها برَوِيَّةٍ وإمعان يجد فيها إضافات كثيرة، وتعليقاتٍ نفيسة،واستدراكات بارعة،وتصحيحات وتصويبات لمؤلف الأصل إذا شعر بوهمه أو غلطه، ومقارنات تدل على معرفته وتبحره في فن الكتاب المختصر؛ فهو اختصارٌ مع سد نقص وتحقيق ونقد وتعليق وتدقيق، وهو أمر لا يتأتىٰ إلا للباحثين البارعين الذين أوتوا بسطة في العلم ومعرفة بفنونه.

والذهبي حين يضيف إلى الكتاب المختصر يَشعر بضرورةِ ذلك لسد نقصٍ يعتري ذلك الكتاب. فحينما اختصر ـ مثلاً ـ كتاب «أُسد الغابة في

معرفة الصحابة» لعز الدين ابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠ هـ زاده من عدة تواريخ منها: «تاريخ الصحابة الذين نزلوا حمص» لأبي القاسم عبد الصمد ابن سعيد الحمصي المتوفىٰ سنة ٣٢٤ هـ، و«مسند» الإمام أحمد بن حنبل المتوفىٰ سنة ٢٤١ هـ، و«مسند» بقيّ بن مَخْلَد المتوفىٰ سنة ٢٧٦ هـ، و«طبقات» ابن سعد المتوفىٰ سنة ٢٣٠ هـ، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١ هـ، ومن كتابات ابن سَيِّد الناس المتوفىٰ سنة ٧٣٤[١] هـ. وقال سبط ابن حجر عند كلامه على اختصار الذهبي «للمعجم المشتمل على ذكر شيوخ الأئمة النُّبَل» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١ هـ: «زاده فوائد ومحاسن»[٢].

ويجد الباحث في مختصرات الذهبي تعليقات نفيسه، ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما عمِلَهُ في كتاب «الكاشف» الذي اختصره من «تهذيب الكمال» لأبي الحجاج المزي المتوفىٰ سنة ٧٤٢ هـ، فعلى الرغم من محافظة الذهبي على روح النص الأصلي، فقد بث فيه من رُوحه ونشر فيه من علمه ما جعله يكاد يكون مؤلَّفاً من تآليفه مخالفاً للأصل المختصر منه في كثير من الأمور.

وآية ذلك أنه علَّق على آراء بعض أئمة الجرح والتعديل فيه تعديلاً أو إبطالاً، كما حَقق كثيراً من التراجم وزادها تدقيقاً لا نجده في الأصل. فضلاً عن بيانِ رأيه في كثير من الرواة على أسس من دراساته الواسعة، وخِبرته العميقة بعلم الحديث النبوي الشريف مما حدا بتاج الدين السبكي أن يصف هذا المختصر بأنه «كتاب نفيس»[٣].

---

(١) أنظر أدناه قائمة المختصرات في مؤلفات الذهبي وما كتبناه عنه في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) «رونق الألفاظ» الورقة ١٨٠.

(٣) «طبقات الشافعية» ٩ / ١٠٤.

وتَظهر براعة الذهبي في النقد والتحقيق في كثير من هذه المختصرات، فمِن ذلك ـ مثلاً ـ ما ظهر في مختصره لكتاب «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥ هـ الذي قصد فيه مؤلفه أن يورد أحاديث على شرط البخاري ومسلم مما لم يذكراه في صحيحيهما، حيث يتبيَّنُ لنا منَ مُطالعة المختصر وتعليقات الذهبي عليه وتخريجاته ونقدهِ أنه لم يصحح من أحاديث الكتاب سوى النصف، وَبيَّن أن نصف النصف الآخر يَصح سنده وإن كان فيه علة، أما الربع الأخير فهو أحاديث مناكير وواهيات لا تصح، بل إن في بعضها أحاديثَ موضوعة[1]. وهذا يعني أن الذهبي قد أعاد دراسة جميعِ أحاديث المستدرك مجدداً ونقَدها، فخرج بهذه النتيجة.

وغالباً ما يقوم الذهبي بتخريج الأحاديث الواردة في الكتب التي يقوم باختصارها، فغالب التخريج في كتاب «تلخيص العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» الذي لخصه من كتاب «العلل» لابن الجوزي المتوفىٰ سنة ٥٩٧ هـ هو من كلام الذهبي[2]. ولما اختصر الذهبي كتاب «السنن الكبرى» للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ. تكلَّم على أسانيد الكتاب بنفائسَ تدُلُّ على تبحره بهذا الفن، ووضع رموزاً على الحديث لمن خَرَّجه من أصحاب الصحيحين والسنن الأربع، وخرَّج الأحاديث التي لم ترد في هذه الكتب الستة.

وكثيراً ما كان الذهبي يخرِّج تراجم الكتب التي يختصرها في علم الرجال.

---

(١) انظر ما كتبناه عن «مختصر المستدرك» في كلامنا على مؤلفات الذهبي من كتابنا: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) الذهبي: «تلخيص العلل» ورقة ٨٥ (نسخة الأزهر رقم ٢٩٠ حديث).

من ذلك ـ مثلاً ـ ما عمِلَهُ في اختصاره لتاريخ ابن الدبيثي المتوفى سنة ٦٣٧ هـ حيث زاد في كثير من تراجمه ولا سيما الرجال الذين أخذوا عن صاحب الترجمة، وهو ما أغفله ابن الدبيثي في «تاريخه»[١]. كما تظهر مقارنات دقيقة بالكتب والتواريخ التي من بَابته «كتاريخ محب الدين ابن النجار» المتوفىٰ سنة ٦٤٣ هـ الذي ذيَّل به علىٰ تاريخ الخطيب المتوفىٰ سنة ٤٦٣ هـ[٢]، و«وفيات الأعيان»، لابن خَلِّكان المتوفىٰ سنة ٦٨١[٣] هـ، و«التكملة لوفيات النقلة» لزكي الدين المنذري المتوفى سنة ٦٥٦[٤] وغيرها.

أو من كتب الشعر ككتاب «الخريدة» للعماد الأصبهاني القرشي المتوفى سنة ٥٩٦[٥] هـ.

أو من كتابات كبار العلماء الذين أخذوا عن المترجم له، مثل زكي الدين البِرْزالي المتوفى سنة ٦٣٦[٦] هـ، وفخر الدين ابن البخاري المتوفى سنة ٦٩٠ هـ صاحِب «المشيخةِ» المشهورة[٧]، وشهاب الدين أحمد بن إسحاق الأبرقوهي المتوفىٰ سنة ٧٠١ هـ[٨]، وضياء الدين المقدسي المتوفى سنة

---

(١) انظر «المختصر المحتاج»مثلاً ١ / ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٧، ١٠١، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٨، ١٧٩، ١٩٩.. إلخ.

(٢) انظر «المختصر المحتاج» مثلاً ١/ ٢١، ٤٩، ٥١، ٦٩، ٧٢، ٧٧، ٨٠، ١٠١، ١٣٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨... الخ.

(٣) المصدر السابق، مثلاً ١ / ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه ١/١٥٨.

(٥) « المختصر» ١/٢٢٥.

(٦) «المختصر» مثلاً ٢/٦٢.

(٧) المصدر نفسه، مثلاً ٢/٦٣.

(٨) «المختصر» مثلاً ٢/٣٦.

٦٤٣ هـ[١] وغيرهم كثير.

أو من خطوط العلماء نحو قوله: «قرأت بخط ابن قُدامة»[٢]. فضلاً عما أضاف هو من الأسانيد التي قرأها على شيوخه مما يتصل بتلك التراجم، وهي إضافة أصيلة للترجمة، فهو حينما يقول مثلاً: «وروىٰ لنا عنه بمصر أبو المعالي الأبرقوهي[٣]» أو «روى لنا عنه أبو العباس ابن الظاهري وأبو الحسين اليونيني وعلي بن عبد الدائم ومحمد بن يوسف الإربلي... إلخ[٤]» فمعنى ذلك أن هؤلاء الشيوخ قد أخذوا عن صاحب الترجمة[٥].

ومن إضافاته إلى تلك المختصراتِ أيضاًتواريخ وَفيات المترجمين الذين لم يذكر صاحب الكتاب الأصلي وفياتهم.

فنحن نعلم ـ مثلاً ـ أن ابن الدُّبيثي لم يذكر وفاة أحد ممن ذكرهم في تاريخه ممن تأخرت وفاتهُ عن سنة ٦٢١ هـ وهي السنة التي حَدَّث ابن الدبيثي فيها بتاريخه والتي تُمثِّلُ آخر إخراج له[٦]، في حين أن وفيات بعضهم قد تأخرت إلى النصف الثاني من القرن السابع الهجري، فاستخرجَ الذهبي وَفياتهم وذكرهاليكون اختصاره أكملَ ولتكون معلومات الكتاب أتم[٧]. يضاف إلى ذلك أنه يَروي بعض الأحاديث الواردة في هذه المختصرات

---

(١) المصدر نفسه، مثلاً ٢/٣٦، ٦٢.
(٢) المصدر نفسه، مثلاً ١/٦٥
(٣) المصدر نفسه، ١/٢١.
(٤) المصدر نفسه ١/٢٣.
(٥) انظر مزيداً من الأمثلة، «المختصر» مثلاً ١/٧٦، ١٣٠، ١٣٦، ١٤٠، ١٥٢، ٢٢٦، ٢٣١.
(٦) انظر كتابنا: «تاريخ بغداد لابن الدبيثي، منهجه،موارده، أهميته» ص ٤ (بغداد ١٩٧٤).
(٧) انظر «المختصر المحتاج إليه» مثلاً ١/ ٧٦، ٨٦، ١٠٦، ١٣٣، ١٥١، ١٥٢... إلخ. ونجد أيضاً ذكراً لوفيات من يرد اسمه عرضاً في بعض الاحيان ١/١٠٣.

بسنده إذا وجد مجالاً لذلك[١].

وأعاد الذهبي تنظيمَ بعض الكتب التي اختصرها، فحينما اختصر كتاب «الكُنىٰ» لأبي أحمد الحاكم المتوفىٰ سنة ٣٧٨ هـ أعاد ترتيبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أشياء أخرى مما ليسَ فيه[٢].

كما رتب «المجرد من تهذيب الكمال» على عشر طبقات ورتَّب كل طبقة على حروف المعجم، في حين كان كتاب «تهذيب الكمال» للمِزِّي مرتباً على حروف المعجم[٣].

وقد حَفِظْنا من سيرة الذهبي أنه عُنِيَ بالقراءات ودَرسَها على كبار شيوخ عصره من المقرئين المشهورين حتى أصبح «الأستاذ الثقة الكبير[٤]» فيها. وذكر ابن ناصر الدين المتوفىٰ سنة ٨٤٢ هـ أنه كان «إماماً في القراءات[٥]». لكننا نلاحظ في الوقت نفسه أنه لم يتخرج عليه في القراءات سوى عدد قليل جداً[٦] ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه عُنِيَ بهذه الناحية في مطلع حياته العلمية، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحديث والتاريخ وغيرِهما. ولم نعرف من آثاره في هذا الفن غير كتاب «التلويحات في علم القراءات[٧]» وكتاب «معرفة

---

(١) «المختصر المحتاج إليه» ١ / ٤٩، ٦٥.

(٢) انظر مقدمة نسخة فيض الله رقم ١٥٣١ من الكتاب.

(٣) انظر كلامنا على كتاب «المجرد من تهذيب الكمال» في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢٣٠.

(٤) ابن الجزري: «غاية» ٢ / ٧١.

(٥) «الرد الوافر» ص ٣١.

(٦) ابن الجزري: «غاية» ٢/ ٧١، قال: «ولم أعلم أحداً قرأ عليه القراءات كاملاً، بل شيخنا الشهاب أحمد بن إبراهيم المنبجي الطحان قرأ عليه القرآن جميعه بقراءة أبي عمرو والبقرة جمعاً. وروى عنه الحروف إبراهيم بن أحمد الشامي ومحمد بن أحمد ابن اللبان وجماعة. وسمع منه الشاطبية يحيى بن أبي بكر البوني وحدث بها عنه في اليمن».

(٧) انظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي (القراءات).

القراء الكبار على الطبقات والأعصار» الذي هو إلى كتب التراجم أقرب منه إلى القراءات وإن كانت محتوياته غالباً ما تتعلق بموضوع القراءات. وقد شهد له ابن الجزري بالإحسان فيه[١]، لذلكَ سَلخَه بأجمعه في كتابه «غاية النهاية» كما نص على ذلك في المقدمة[٢]، ووصَفهُ شمس الدين السخاوي بأنه «كتاب حافل»[٣]. ومع كل ذلك فإنَّ هذا الوجه من حياة الذهبي العلمية هو أضعف الوجوه وأقلها آثاراً.

علىٰ أن مكانة الذهبي العلمية وبراعته تظهران في أحسن الوجوه إشراقاً وأكثرِها تألقاً عند دراستنا له مُحدِّثاً يُعنىٰ بهذا الفن، فقد مَهر الذهبي في علم الحديث وجَمع فيه الكتب الكثيرة «حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً[٤]».

وقد رأينا إقباله العظيم عليه وشَرَهَهُ لسماعه، وذاكَ العدد الضخم من الشيوخ الذين حَوتْهُم معجمات شيوخه الثلاثة، والكتب، والأجـزاء، والمجاميع الكثيرة التي قرأها على الشيوخ أكثر من مرة. وقد فَتحت له هذه المعرفة الواسعة آفاقاً عظيمة في هذا الفن فاختصر عدداً كبيراً من الكتب، وأَلَّف عدداً أكبر يستبينه الباحث عند إلقائه نظرة علىٰ قائمة مؤلفاته في هذا المجال. كما أَلَّف في مصطلح الحديث كتباً، وخرَّج التخاريج الكثيرة من الأربعينات، والثلاثينـات، والعوالي، والأجـزاء، ومعجماتِ الشيـوخ، والمشيخات، وغيرها مما فصَّلنا القول فيه عتد كلامنا على آثاره[٥].

ومع أن الذهبي قد عاش في عصرٍ غلب عليه الجمود والنقل والتلخيص،

---

(١) «غاية» ٢ / ٧١.
(٢) المصدر نفسه ٣/١.
(٣) «الإعلان» ص ٥٦٤.
(٤) ابن حجر: الدرر ٤٢٦/٣.
(٥) كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ١٣٩ فما بعد.

فإنه قد تخلَّص من كثير من ذلك بفضل سَعة دراساته وفطنته.

قال تلميذه صلاح الدين الصفدي المتوفىٰ سنة ٧٦٤ هـ: «لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كَوْدنة[١] النَّقَلة بل هو فَقيه النظر، له دُرْبةٌ بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات. وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدىٰ حديثاً يورده حتى يُبيِّن ما فيه من ضعفِ مَتنٍ، أو ظلام إسنادٍ، أو طَعن في رواته، وهذا لم أر غيره يراعي هذه الفائدة فيما يُورده»[٢].

إن هذه البراعة في علم الحديث، والتمكُّن منه ذاك التمكن، جعلتِ الذهبي ينطلق بعد ذلك يجرِّح، ويعدِّل، ويفرِّع، ويصحِّح، ويعلِّل، ويستدرِك على كبار العلماء[٣]، «فدخل في كل باب من أبوابه» على حد تعبير تلميذه تاج الدين السبكي[٤]، حتى أطلق عليه معاصروه «محدِّث العصر[٥]».

وبلغ اعتراف حافظ عصره الإمام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ بفضل الذهبي وبراعته إلى درجة أنه شرب ماء زمزم سائلاً الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ وفطنته[٦].

---

(١) الكودنة: البلادة.

(٢) «الوافي» ٢ / ١٦٣.

(٣) الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ» ص ٣٥.

(٤) «الطبقات الوسطى» (ترجمة الذهبي من نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥٥٤).

(٥) السبكي: «الطبقات» ٩/ ١٠٠، العيني: «عقد الجمان» ورقة ٣٧ (أحمد الثالث رقم ٢٩١١).

(٦) استناداً إلى حديث رسول الله - ﷺ - «ماء زمزم لما شرب له» وقد ذكر ذلك تلميذه السخاوي في «الإعلان» (ص ٤٧٢). وقديماً شرب ابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ ماء زمزم وطلب علماً نافعاً (الذهبي: تذكرة، ٢ / ٧٢١). وقال الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥: «شربت ماء زمزم وسألت الله أن يرزقني حسن التصنيف» (الذهبي: تذكرة، ٣/ ١٠٤٤). وألف شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي المتوفىٰ سنة ٩٥٣ هـ رسالة في «التزام مالا يلزم فيما ورد في ماء زمزم» منها نسخة في خزانة كتب جستربتي في دبلن ضمن مجموع برقم ٣٣١٧.

ومفهوم التاريخ عند الذهبي يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث النبوي وعلومه، ويظهر ذلك من كتب الرجال التي يُطلق الذهبي عليها اسم «التاريخ».

وقد أصبح واضحاً أن الغاية الرئيسة من العناية بالرجال تأتي لضبط الرواة أولاً[١]، وهو ما يظهر في معظم مقدمات كتبه في هذا الفن، وهو مفهوم ساد عند المحدِّثين المؤرخين لا سيما في ذلك العصر[٢].

وعلى علم الرجال، وعلىٰ آثار الذهبي فيه، قامت شُهرته الواسعة باعتباره مؤرخاً، كما نرى.

وقد خلَّف الذهبي في هذا الفن عدداً ضخماً من الآثار ابتدأها باختصار أمهات الكتب المؤلفة فيه، كالتواريخ المحلية مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي المتوفىٰ سنة ٤٦٣هـ، والذيولِ عليه: لابن السمعاني المتوفىٰ سنة ٥٦٢هـ، وابن الدبيثي المتوفىٰ سنة ٦٣٧هـ وابن النجار المتوفىٰ سنة ٦٤٣هـ. ومنها أيضاً «تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١هـ، و«تاريخ مصر» لابن يونس المتوفىٰ سنة ٣٤٧هـ، و«تاريخ نيسابور» لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة ٤٠٥هـ، و«تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي المتوفىٰ سنة ٥٦٨هـ. ومن كتب الوفيات: «التكملة لوفيات

---

(١) انظر كتابنا: «أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين». بغداد، مطبعة الحكومة ١٩٦٦م، وبحثنا: «مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين» المنشور في مجلة الأقلام البغدادية، السنة الأولى، العدد الثالث ١٩٦٥م.

(٢) حينما شعر الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفىٰ سنة ٨٥٢هـ أن من بين مستدركاته على الذهبي في كتابه «المشتبه» أسماء لشعراء وفرسان في الجاهلية وما أشبه ممن ليست لهم رواية حديثية، اعتذر عن ذلك بقوله: «فإن غالب مَنْ ذكرت يأتي ذكره في كتب المغازي والسير والمبتدأ والأنساب والتواريخ والأخبار ولا يستغني طالب الحديث عن ضبط ما يرد في ذلك من الأسماء ولو لم يكن لهم رواية» «تبصير المنتبه» ٤/١٥١٣.

النقلة» لزكي الدين المنذري المتوفىٰ سنة ٦٥٦هـ وصلته للحسيني المتوفىٰ سنة ٦٩٥هـ. ومن كتب الأنساب: كتاب «الأنساب» لأبي سعد السمعاني المتوفىٰ سنة ٥٦٢هـ. ومن كتب الصحابة كتاب «أُسد الغابة» لابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠هـ. ومن كتب رجال الصحاح والسنن مثل كتاب «تهذيب الكمال في معرفة الرجال» لأبي الحجاج المِزِّي المتوفى سنة ٧٤٢هـ، و«المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النُّبل» لابن عساكر المتوفىٰ سنة ٥٧١هـ وغيرها[1]. فكانت هذه المختصرات المادة الرئيسة التي كوَّنت شخصيته العلمية ومعرفته بالعصور السابقة.

أما تراجم المعاصرين فيُعَدُّ الذهبي من بين أحسن الذين كتبوا فيهم، وقد أدرك أهمية هذا الأمر فكان كتابه «المعجم المختص بمحدثي العصر»خيرَ دليل على ذلك.

ولا عبرة بعد ذلك بمن انتقده لتناوُله التاريخ المعاصر كابن الوردي[2]، لأن هذا هو التاريخ الأكثر أهمية وخطراً، وهو الذي يعطي المؤرخ أهميَّته البالغة بين المؤرخين ويميزه عن غيره، وهو مما لم يدركه كثير من المعنيين بالتاريخ ومنهم ابن الوردي.

لقد أنتجت هذه المعرفة الرِّجاليةُ الواسعة مؤلفاتٍ كثيرة لعل من أهمها كتابهُ العظيم «تاريخُ الإسلام ووفياتُ المشاهير والأعلام» الذي هو إلى كتب التراجم أقرب منه إلىٰ التاريخ بمفهومه الحديث، وكتابه النفيس «سير أعلام النبلاء» الذي لم يتضمن غير التراجم، ثم ذلك العدد الضخم من المؤلفات التي عرفناها له.

---

(١) انظر كلامنا على «المختصرات» من كتابنا: الذهبي ومنهجه: ٢١٥ ـ ٢٦٤.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر، ٢/٣٤٩

ولعل مما يُميز الذهبي عن غيره من بعض مؤلفي كتب الرجال والتراجم أنه لم يقتصر في تأليفه على عصر معين، أو فِئة معينة، أو تنظيم معين، بل تناولت مؤلفاته رجال الإسلام من أول ظهوره حتى عصره، بَلْهَ المعاصرين له.

وهو في كتابته للترجمة فنان تراجمي مَليء بفن التراجم يجد الباحث فيها دقة متناهية في التعبير، وحبكاً للترجمة تَشُدُّ القارىء إليها مع تعدد الموارد وانتقاء لأفضلها وإبداءٍ لآرائه الشخصية فيها[١].

وقد عانى الذهبي كتابة«السيرة» وهو فن خاص له مميزاته التي تجعله يختلف عن كتابة «الترجمة» المجردة، فكتب في سير الخلفاء الراشدين، وأئمة الفقه، والحديث ، وغيرهم[٢].

ومعرفة الذهبي الواسعة في الرجال دفعت تاجَ الدين السبكي الذي انتقده في بعض المواضع إلى القول :«إنه كان شيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال، وكأنما جُمعتِ الأمة في صعيد واحد فنظرَها ثم أخذ يُعبِّر عنها إخبارَ من حَضَرها[٣]». وقد ازداد شأنه بعد عصره بحيث اعتُبِرَ هو والمزي مؤرِّخي القرن الثامن اللذين لا ينافسهما أحد[٤]، وعدَّه الإمام السيوطي المتوفىٰ سنة ٩١١هـ رأسَ طبقة ذكر فيها القطب الحلبي المتوفىٰ سنة ٧٣٥ هـ وابنَ سيد الناس المتوفىٰ سنة ٧٣٤ هـ وشمسَ الدين المقدسي المتوفىٰ سنة ٧٤٤هـ

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث عند كلامنا على منهج الذهبي في «السير»وما كتبناه عن منهجه في كتابه «تاريخ الإسلام» في كتابنا المذكور عنه.

(٢) انظر أدناه «السير» من آثار الذهبي.

(٣) السبكي: «طبقات» ١٠١/٩.

(٤) السخاوي: «الإعلان» ص ٦٠٤.

وتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ وعلم الدين البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وشهاب الدين النابلسي المتوفىٰ سنة ٧٥٨[١]هـ وهم من أعلام الحفاظ المحدِّثين المؤرخين، وذكر أن المحدثين في عصره عيالٌ في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة أحدهم الذهبي[٢].

ومع أن براعَة الذهبي التاريخية أكثر ما ظهرت في الرجال فإنه قد درَس التاريخ السياسي، واختصر عدداً من المؤلفات الرئيسية فيه مثل تاريخ أبي شامة المتوفىٰ سنة ٦٦٥هـ وتاريخ أبي الفداء المتوفىٰ سنة ٧٣٢ هـ وغيرهما، وأفاد من معظم التواريخ المعروفة في عصره ودرسها كسيرة ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ وتواريخ: الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وابن الأثير المتوفىٰ سنة ٦٣٠هـ وابن الجوزي المتوفىٰ سنة ٥٩٧ هـ وغيرها مما يطول تعداده[٣].

وقد ظهرت هذه الكتابات في تواريخه المرتَّبة على الحوادث والوفيات مثل «تاريخ الإسلام» و«العبر»و «دول الإسلام» وغيرها. ونَستبين من نطاق كتاباته هذه أنه كان مؤرخاً جوَّال الذهنية استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي من أول ظهوره حتى زمانه الذي كتب فيه مؤلفاته، وهي فترة تزيد على السبعة قرون، فألَّف في كل هذه العصور بعد أن درسها دراسة عميقة قامت على دعامتين رئيستين هما: الرواية الشفوية والكتب وهذا أمر لم يَتأتَّ لكثير من العلماء الذين سبقوه أو عاصروه.

وحينما كتب الذهبي كتابه «تذكرة الحفاظ» ورتَّبه على الطبقات تكلم في

---

(١) السيوطي: «طبقات الحفاظ» ورقة ٨٥ فما بعد (نسخة الاسكندرية).
(٢) المصدر نفسه، ورقة ٨٦.
(٣) انظر كلامنا على نهج الذهبي في الموارد من كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ٢٨٤ فما بعد.

نهاية أكثرها على الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في الوقت الذي تناولته فأجمل الأوضاع العامة بفقراتٍ قليلة دلَّلت على سعة أفقه التاريخي وقدرته الفائقة على تصوير حقبة كاملة من الزمن وعلى امتداد العالم الإسلامي المترامي الأطراف بعبارة وجيزة. وهذا أمر لا يتأتىٰ إلا لمن استوعب العصر ودرسه دراسة عميقة بحيث حَصل له مثل هذا التصور والفهم العام(١).

ثم إن هذه المعرفة الرجالية الواسعة مع ما أوتي من ذكاء وإدراك واسعين جَعلتْ منه ناقداً رِجالياً ماهراً، تدلُّ علىٰ ذلك مؤلفاته في النقد وأصوله والتي مِن أبرزها كتابه العظيم «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» الذي اعتبره معاصروه(٢) ومن جاءَ بعدهم(٣) من أحسن كتبه وأجلِّها. وقد تناوله عدد كبير من الحفاظ والعلماء والمعنيين بالنقد استدراكاً وتعقيباً وتلخيصاً بحيث قال شمس الدين السخاوي: «وعوَّل عليه من جاء بعده(٤)».

وللذهبي التفاتات بارعة في أصول النقد؛ فقد ألَّف رسالة في «ذكر من يؤتمن قوله في الجرح والتعديل» تكلَّم فيها على أصول النقد وطبقاتِ النُّقاد وكيفية أخذ أقوالهم(٥).

وأورد في مقدمة «الميزان» عباراتِ الجرح والتعديل من أعلى مراتبها إلى أدناها وبيَّن مدلولاتها في النقد(٦). وهو في كتبه يشرح بعض هذه الأصول،

---

(١) انظر مثلاً الذهبي: «تذكرة الحفاظ» ١ /٧٠، ١٥٨ ـ ١٦٠، ٢٤٤، ٣٢٨، ٢ / ٥٣٠، ٦٢٧ ـ ٦٢٨، ٤ /١٢٦٦، ١٤٨٥

(٢) السبكي: «طبقات» ٩ /١٠٤، الحسيني: «ذيل تذكرة الحفاظ» ص ٣٥

(٣) ابن حجر: «لسان الميزان» ١ /٤

(٤) «الإعلان» ص ٥٨٧ وانظر كلامنا على الميزان في كتابنا: «الذهبي ومنهجه»: ١٩٣ ـ ٢٠١

(٥) نسخة أيا صوفيا رقم ٢٩٥٣

(٦) «ميزان الاعتدال» ١ /٣ ـ ٤

من ذلك مثلاً ماذكره في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي، قال: «شيعي جَلْد، ولكنه صدوق فَلَنا صِدقه، وعليه بدعته. وقد وثَّقه أحمد بن حنبل، وابن معين، وأبو حاتم، وأورده ابن عدي، وقال: كان غالياً في التشيع. وقال السعدي: زائغ مجاهر. فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدُّ الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟ وجوابه أن البدعة على ضربين: فبدعة صغرىٰ كغُلوِّ التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولاتحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مَفسدة بينة. ثم بِدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه، والحط علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يُحتج بهم ولا كرامة... ولم يكن أبان بن تغلب يعرض للشيخين أصلاً، بل قد يعتقد علياً أفضل منهما[1]».

وقال في ترجمة أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: «أحد الأعلام صدوق، تكلّم فيه بلا حجة، ولكن هذه عقوبة من الله لكلامه في ابن منده بهوىٰ، قال الخطيب: «رأيت لأبي نعيم أشياء يتساهل فيها، منها أنه يطلق في الإجازة أخبرنا ولا يبيّن. وقلت (يعني الذهبي): هذا مذهب رآه أبو نعيم وغيره، وهو ضرب من التدليس. وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع، لا أحب حكايته، ولا أقبل قول كل منهما في الآخر، لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها... قلت: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوةٍ أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سَلِمَ أهله من ذلك، سوى الأنبياء

---

(١) «ميزان الاعتدال» ١ /٥ ـ ٦ وانظر أمثلة أخرى في «معجم الشيوخ» م ١ الورقة ٢٥٦، م ٢ الورقة ٧٢، «وتاريخ الإسلام» الورقة ٩٣ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /٩).

والصديقين، ولو شئتُ لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤ وف رحيم[١]».

ولم يكن الذهبي ليصدر اتباعاً لآراء الآخرين في النقد فهو يخالفهم في بعض الأحيان حين لا يجد لآرائهم من سند قوي يؤ يدها؛ فمن ذلك ـ مثلاً ـ ما جاء في ترجمة زيد بن وهب الجهني، أحد التابعين، وهو الذي تكلم فيه أبو يعقوب الفسوي في «تاريخه» وذكر أن في حديثه خللاً كبيراً، فقال: «ولا عبرة بكلام الفسوي[٢]» وأورد في «ميزان الاعتدال» مآخذ الفسوي عليه وردَّ عليها ثم قال: «فهذا الذي استنكره الفسوي من حديثه ما سُبق إليه، ولو فتحنا هذه الوساوس علينا لرددنا كثيراً من السنن الثابتة بالوهم الفاسد[٣]» والميزان مليء بمثل هذه النقدات لامجال لتكثير الأمثلة منها. بل وجدناه يؤلف كتابين، يرد فيهما على جملة من علماء الجرح والتعديل هما: «رسالة في الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم»، وكتاب «من تكلّم فيه وهو موثق».

ولم يقتصر نقد الذهبي على الرجال حسب، بل تعدَّىٰ ذلك إلى نقد الموارد التي يطالعها أو يختصرها أو يأخذ منها، وهو ما يُعرف اليوم بنَقد المصادر؛ من ذلك مثلاً نقده لكتاب «الضعفاء» لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ الذي اختصره وذيَّل عليه، فقال في ترجمة أبان بن يزيد العطار: «قد أورده أيضاً العلامة ابن الجوزي في «الضعفاء» ولم يذكر فيه أقوال مَن وثَّقه. وهذا من عيوب كتابه يسرُد الجرح ويَسكت عن التوثيق»[٤]. وقال في ترجمة حفص

---

(١) نفسه، ج ١ ص ١١١ وانظر «تاريخ الإسلام» الورقة ٣٣٤ (أيا صوفيا ٣٠٠٨).

(٢) الذهبي: «تذكرة» ١ / ٦٧

(٣) الذهبي: «ميزان الاعتدال» ٢ / ١٠٧ وانظر: «تاريخ الإسلام» الورقة ٤٨٥ (أيا صوفيا ٣٠٠٩).

(٤) المصدر نفسه، ١ /١٦. وقد تكلم في هذه المسألة ابن حجر في «اللسان» فراجعه هناك تجد فائدة.

ابن بغيل من الميزان : «قال ابن القطان : لا يُعرف له حال ولا يعرف قلت : لم أذكر هذا النوع في كتابي هذا؛ فإن ابن القطان يتكلم في كل من لم يَقُل فيه إمامٌ عاصرَ ذاك الرجل أو أخذ عمن عاصره مما يدل على عدالته . وهذا شيء كثير، ففي الصحيحين من هذا النمط خلقٌ كثير مستورون، ما ضعَّفهم أحد ولا هم بمجاهيل[١]». وانتقد الذهبي كتاب «الضعفاء» لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي المتوفى سنة ٣٢٢هـ لإيراده بعضَ الثقات ومنهم حافظ عصرِه عليُّ بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ فقال في ترجمة ابن المديني من الميزان : «ذكره العُقيلي في كتاب الضعفاء فبِئس ما صَنع» وردَّ عليه حينما نقل قول عبد الله بن أحمد بن حنبل : «كان أبي حدثنا عنه، ثم أمسك عن اسمه . . . ثم ترك حديثَه»، بقوله : «بل حديثُه عنه في مسنده» وهذا رد مفحم من الذهبي بل قال بعد ذلك : «وهذا أبو عبد الله البخاري ـ وناهيك به ـ قد شَحنَ صحيحَهُ بحديث ابن المديني[٢]».

ولا يقتصر الذهبي عند نقد الكتب على إيراد مساوئها، بل كثيراً ما يذكر محاسنها ومميزاتها؛ فقد سبق أن قال إن كتاب العقيلي مفيد[٣]، وقال عن كتاب «الكامل» لابن عدي المتوفى سنة ٣٦٥هـ إنه «أكمل الكتب وأجلها في ذلك[٤]»، وقال في ترجمة الدَّارَقطني المتوفىٰ سنة ٣٨٥هـ : «وإذا شئت أن تتبين براعة هذا الإمام الفَرْدِ فطالِع العِللَ له فإنك تندهش ويطول تعجُّبُك[٥]» .

---

(١) « ميزان الاعتدال » ١ /٥٥٦
(٢) « ميزان الاعتدال » ٣ / ١٣٨ ـ ١٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ١ /٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ١ / ٢ .
(٥) « تذكرة الحفاظ » ٣ /٩٩٣ ـ ٩٩٤ .

ونحن نعلم أيضاً أن الذهبي قد عانَىٰ النقد في تآليف خاصة ردَّ بها على كتب مُعَيَّنة، فقد ألَّف كتاباً في الرد علىٰ ابن القطان المتوفىٰ سنة ٦٢٨هـ[١] كما ألف كتاب «مَن تُكُلِّم فيه وهو موثَّق» رد به على جملة من كتب الضعفاء كما بيَّنا.

وَبِسَبب هذا الذي قدمنا ذِكره من براعةِ الذهبي في النقد والتمكن منه، فقد أصبح «شيخَ الجرح والتعديل» كما ذكر تاج الدين السبكي[٢]. وقال ابن ناصر الدين المتوفىٰ سنة ٨٤٢هـ: «ناقد المحدِّثين وإمام المُعدِّلين والمُجرحين . . .وكانَ آيةً في نقدِ الرِّجال، عُمْدَةً في الجرح والتعديل[٣]»، وقال شمس الدين السَّخاوي المتوفىٰ سنة ٩٠٢: «وهو مِنْ أهل الاستقراء التام في نَقد الرجال[٤]»، فأصبحت أقوال الذهبي فيمن يُترجم لهم تُعتبر عند النقاد والمؤرِّخين الذين جاءوا بعده أقصى حدود الاعتبار، وظهرت بصورة جَلِيَّة في المؤلفات التي كُتِبت بعد عصره، ولا سيما في مؤلفات مؤرخ القرن التاسع وحافِظه ابن حجر العسقلاني المتوفىٰ سنة ٨٥٢هـ[٥].

وتُطالعنا عند قراءة كُتب الذهبي العديدُ من الأمثلة التي تدل على قوته في البحث والاستدلال، ومناقشة آراء الغير بروح علمي يعتمد الدليل والإقناع، من ذلك ـ مثلاً ـ مناقشة لمن اتَّهم الحافظَ أبا حاتِمٍ محمد بن حِبان البُسْتِي التميميَّ المتوفى سنة ٣٥٤هـ بالزَّندقة لقولهِ: «إن النبوة هي العلم والعمل» وما تبع ذلك من كتابة الخليفة أمراً بقتله لهذا السبب، قال الذهبي: «وهذا

---

(١) الذهبي: «الرد على ابن القطان» (نسخة الظاهرية، مجموع رقم ٧٠).
(٢) «الطبقات» ٩/١٠١.
(٣) «الرد الوافر» ص ٣١.
(٤) «الإعلان» ص ٧٢٢.
(٥) انظر مثلاً كتابه: «لسان الميزان».

أيضاً له مَحْمَلٌ حَسَنٌ ولم يرد حَصْرَ المبتدأ بالمخبر، ومثله: الحج عرفة. فمعلوم أن الرجل لا يصير حاجّاً بمجرد الوقوف بعرفة، وإنما ذُكر مهمُّ الحج، ومُهِمُّ النبوة؛ إذ أكمل صفات النبي العلم والعمل، ولا يكون أحدٌ نبياً إلا أن يكونَ عالماً عاملاً. نعم، النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من أُولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتسابها أبداً، وبها يتولد العلم النافع الصالح، ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم لا يسوغ، وذلك نَفَس فلسفي[1]». ومن الأمثلة الطريفة أيضاً مناقشة لمسألة معرفة النبي -ﷺ- الكتابَة، فقال في ترجمة الحافظ العلامة أبي الوليد سُليمان بن خلف الباجي المتوفَّىٰ سنة ٤٧٤هـ: «ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر ابن الصائغ وكَفَّره بإجازة الكَتْبِ على رسول الله -ﷺ- النبيِّ الأميِّ وأنه تكذيبٌ بالقرآن، فتكلَّم في ذلك من لم يفهم الكلام حتى أطلقوا عليه الفتنة وقبَّحوا عند العامة ما أُتِيَ به خطباؤهم في الجمع وقال شاعرهم:

برئتُ ممن شـرىٰ دنيا بـآخرة وقال: إن رسول الله قد كتبا

وصَنَّفَ أبو الوليد رسالةً بَيَّن فيها أن ذلك غيرُ قادح في المعجزة فرجع بها جماعة.

قلت: ما كل من عَرَف أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أمياً لأنه لا يسمى كاتباً. وجماعـة من الملوك قد أدمنوا في كتابة العلامة وهم أمِّيون، والحُكْمُ للغَلَبة لا للصورة النادرة، فقد قال عليه السلام: «إنا أمة أمِّية» أي أكثرهم كذلك لندور الكتابة في الصحابة، وقال تعالى: ﴿هو الذي بعثَ في

---

(١) الذهبي: «تذكرة» ٣ / ٩٢١ - ٩٢٢ وراجع «تاريخ الإسلام» ورقة ١٦ - ١٧ (أحمد الثالث ٢٩١٧ / ١٠) وانظر أيضاً «ميزان الاعتدال» ج ٣ / ٥٠٧ - ٥٠٨ ففيه تفصيل أكثر في هذه المسألة.

الأُميين رسولاً منهم﴾[١].

وقال في موضع آخر معقباً على هذه المسألة أيضاً: «قلتُ: وما المانع من جواز تعلم النبي - ﷺ - يسيرَ الكتابة بعد أن كان أُمياً لا يدري ما الكتابة، فلعله لكثرة ما أملَى على كُتّاب الوحي وكُتّاب السننِ والكتبِ إلى الملوك عرفَ من الخطِّ وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية محمد بن عبد الله، وليست كتابتُه لهذا القدر اليسير ما يخرجه من كونه أمياً ككثير من الملوك أميين ويكتبون العلامة»[٢]. ومثل هذا كثير في كتب الذهبي.

وقد حفظنا من سيرة الذهبي أنه كان سَلَفِيَّ العقيدة قد أثرت فيه البيئة الدمشقية وصُحبتُه لشيخ الإسلام ابن تيمية. ومع أن الذهبي لم يكن متحمِّساً للخوض في مضايق العقائد ويَعْتبر السكوت فيها أولى وأسلم[٣]، لكنه في الوقت نفسِه أبدى آراءه في كثير من المواضع، وألَّف فيها. وقد اعتبر «الاعتزال بِدعة»[٤] وهاجم الفلاسفة اليونانيين هجوماً عنيفاً[٥]. وكان على غاية من الإعجاب بأعمال السَّلف وإنجازاتهم[٦]، واهتم اهتماماً كبيراً بذكر أخبار العلماء في المحنة التي أصيبوا بها حينما أعلن المأمون رأيه وألزم الناس القولَ بخلق القرآن، وبَيَّن مواقفهم الجريئة من هذا الأمر[٧].

---

(١) الذهبي: «تذكرة» ٣ /١١٨١ - ١١٨٢. والآية الكريمة من سورة الجمعة (٢)
(٢) المصدر نفسه، ٢ /٧٤٢
(٣) «تذكرة» ٢ / ٦٠٠، ٤ /١٤٩٩
(٤) انظر مثلاً «تذكرة الحفاظ» ٣ / ١١٢٢
(٥) «أهل المئة فصاعداً» ص ١١٥
(٦) «تذكرة الحفاظ» ج ٢ /٦٢٧ - ٦٢٨
(٧) انظر مثلاً «تذكرة» ١ / ٤٧٦، ٤٧٧، ٥٦١، ٥٨٩، ٢ / ٧٣٠، ٧٣٣، ٧٤٧ ... الخ.

لقد اختصر الذهبي عدداً من الكتب المهمة في العقائد منها - مثلاً - كتاب «البعث والنشور» وكتاب «القدر» اللذان للبيهقي المتوفىٰ سنة ٤٥٨هـ، وكتاب «الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام الانصاري المتوفىٰ سنة ٤٨١هـ وكتاب «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» لرفيقه وشيخه تقي الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.

وخلَّف الذهبي عدداً من الآثار في هذا العلم منها كتاب «الكبائر وبيان المحارم» وكتاب «الأربعين في صفات رب العالمين» وكتاب «العرش» و«كتاب مسألة الوعيد» وغيرها. ولعل من أشهرها كتابه المعروف «العلو للعلي الغفار» الذي يُعد أوسع هذه الكتب وأكثرها شهرة[١].

بحث الذهبي العقائد على طريقة السلف من أهل الحديث، فكانت المادة الرئيسية التي تُكوِّن هذه الكتب والأدلة المستعملة فيها من الأحاديث النبويّة الشريفة.

وقد انتُقد الذهبي من قبل مخالفيه على تأليفه لبعض هذه الكتب واعتقاده مثل هذه العقائد، قال الشيخ محمد زاهد الكوثري عن كتاب «العلو»: «ولو لم يُؤلِّفه لكان أحسن له في دينه وسمعته لأن فيه مآخذ كثيرة،وقد شهر عن الذهبي أنه كان شافعي الفروع حنبلي المعتقد[٢]».

ولم يشتهر الذهبي بوصفه فقيهاً أو عالماً بالفقه مع أنه دَرَسه على أعلام العصر آنذاك مثل الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني ، وبرهان الدين الفَزَاري ، وكمال الدين ابن قاضي شُهبة ، وغيرهم [٣] . وقدّ ألَّف في

---

(١) انظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي .

(٢) « ذيل تذكر الحفاظ » ٣٤٨ هامش ٢

(٣) انظر أعلاه كلامنا على سيرته و « رونق الألفاظ » لسبط ابن حجر ، ورقة ١٨٠

أصوله ، وعُني باختصار كتاب « المحلَّى » لابن حزم [١] ، وهو من كبار الكُتب الفقهية ، وألَّف عدداً من الكتب والأجزاء التي تناولت موضوعاتٍ فقهية ، وكانت له خواطر وآراء ونقَدات جاءت في ثنايا كتبه ، من ذلك مثلاً كلامه في مسألة الطلاق ومناقشته لابن تيمية [٢] . وهو كغيره من علماء الحنابلة يعتبر القرآن والحديث هما أساس الفقه ، ويَظهر مفهومُ الفقه عند الذهبي واضحاً في بيتين من الشعر له ذَكَرَهُما غير واحد ممن ترجم له وهما :

الفقه قال اللهُ قالَ رسولُه ... إنْ صَحَّ والإجْماعُ فَاجْهَد فيه
وحذارِ من نَصْبِ الخِلافِ جَهَالةً ... بَيْنَ النَّبِيِّ وَبيْنَ رأْيِ فَقيهِ [٣]

وهذا الذي قدمناه لا يعني أن الذهبي لم يكن عارفاً بالفقه ، لكنه كان عَزُوفاً عنه لانشغاله بالحديث وروايته الذي هو الأصل الثاني للفقه بعد الكتاب العزيز ، قال ابن ناصر الدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ : « له دُرْبة بمذاهب الأئمة وأرباب المقالات قائماً بين الخلف بنشر السنة ومذهب السلف [٤] » .

ولغة الذهبي في كتبه لغة جيدة قياسياً بالعصر الذي عاش فيه ، ويكفي أننا قلّما وجدنا له لحناً في كتبه .

وهو باعتباره محدثاً كبيراً وناقداً ماهراً دقيقٌ في تعابيره ، لما لذلك من أهمية في وضع الكلمة المناسبة أو العبارة في موضعها الملائم لا سيما في تَحْبير التراجم ، فضلاً عن أسلوبه السلس المُمتع لمن أدمن قراءة مثل هذه الكتب .

---

(١) وهو كتاب « المستحلى في اختصار المحلى » وانظر أدناه كلامنا على آثار الذهبي .
(٢) الذهبي : « تذكرة الحفاظ » ٢ /٧١٣ ـ ٧١٥
(٣) ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣١ . الصفدي : « الوافي » ٢ /١٦٦
(٤) المصدر نفسه .

وقد عُنِيَ الذهبي في مطلع حياته العلمية بروايةِ الشعر وأورد طائفةً من الأشعار عن شيوخه [١] . وذكرتْ لنا مصادرُ ترجمته بعضاً من نظمه في المدح [٢]، والرثاء [٣] . وله شِعرٌ تعليمي ، فقد عَلِمْنا أنه نَظم أسماء المُدَلِّسين بقصيدة أوردها السبكي في طبقاته [٤] ، كما نَظم أسماء الخُلفاء بقصيدة أخرى [٥] . وكان كثيَر الاعتناء بالشعراء تدل على ذلك تراجمهم الواسعة في كتابيه « تاريخ الإسلام » « وسير أعلام النبلاء » والنماذجُ الشعرية الكثيرة التي أوردها وعنايتُه الفائقة بتتبع دواوين الشعراء بحيث قال في ترجمة أبي الحسن محمد بن المظفر البغدادي الخرقي في وفيات سنة ٤٥٥هـ« ولا يكاد يُوجد ديوانُه [٦] » .

وكان للذهبي خط مُتْقَنٌ قد أُعجب به علم الدين البِرْزالي منذ أن بدأ الذهبي يطلب العلم [٧] . وقد وصل إلينا الْكثير من كتبه وكتب غيرِه مكتوباً بخطه ، وهو وإن لم يكن جميلاً مراعياً لأصول الخطاطين والكُتَّاب ، لكنه يمتاز بالدقة والإتقان لا سيما للذي يُدمن عليه .

---

(١) انظر مثلاً « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٣ ، ٧ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٩ . م ٢ ورقة ١ ـ ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٦ ـ ٩٩

(٢) من بين الذين مدحهم الذهبي ووصل إلينا شعره فيهم : إسحاق بن أبي بكر بن ابراهيم الأسدي الحلبي الحنفي النحاس المتوفى سنة٧١٠هـ (معجم الشيوخ ، م ١ ورقة ٣٤) وتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ وولده التاج المتوفى سنة ٧٧١هـ (طبقات السبكي ، ج ٩ ص ١٠٦ ، والسيوطي : طبقات الحفاظ ، ورقة ٨٦) والبِرْزالي (ابن ناصر الدين : الرد الوافر ، ص ١٢٠) .

(٣) من ذلك قصيدته في رثاء رفيقه وشيخه ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ (ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣٥ ـ ٣٦ و « التبيان » ورقة ١٦٥) .

(٤) ٩ /١٠٧ ـ ١٠٩ .

(٥) « تاريخ الإسلام » ورقة ١٧٩ (أحمد الثالث ٢٩١٧ /١١) .

(٦) السخاوي : « الإعلان » ص ٥٤٧ .

(٧) الذهبي : « معجم الشيوخ » م ٢ الورقة ٢٥ ، ابن حجر : «الدرر» ٣ /٣٢٣ .

وعُرف الذهبي بزهده وورعه وَديانته المتينة ، وقد رأينا عند دراستنا لمجمل سيرته أنه كان يأنس إلى الاجتماع بمشاهيرِ الفقراء والصوفية من ذوي الدِّيانة والتمسك بالآثار .

قال تلميذه تقي الدين ابن رافع السَّلاّمي المتوفى سنة ٧٧٤هـ: « كان خَيِّراً صالحاً متواضعاً حَسَن الخلق حلو المحاضرة ، غالبُ أوقاته في الجَمْع والاختصار والاشتغال بالعبادة ، له وِردٌ بالليل ، وعندَه مروءة وعصبية وكرم [١] » وقال الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ: « مع ما كان عليه من الزهد التام والإيثار العام والسَّبق إلى الخيرات والرَّغبة بما هو آت [٢] » ويكفي الذهبي أنه أفنى حياته في دراسة حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتدريسِه .

لقد أصبحتْ كُتب الذهبي متداولةً في عصره والعصور التالية له ، واعتُبرت من أعظم الموارد التي استقى منها الكُتَّاب الذين جاءوا بعده .

قال ابن حجر : « ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسَببها وتداولوها قراءةً ، ونَسْخاً ، وَسَماعاً [٣] » .

وقال تلميذه الحسيني : « وقد سار بجملةٍ منها الركبـان في أقطار البلدان [٤] » . وحسْبُنا أن نلقي نظرةً عَجْلىَ على المُستدركات والتلخيصات والذيول التي عُملت على كتبه لنُدرك أهميتها البالغة .

وكان الذهبي مدرسةً قائمة بذاتها خرَّجتِ العديد من الحفاظ والعلماء . وقد أتاحت له معرفته العظيمة الواسعة بالحديث وعلومه والتاريخ وفنونِه مكانةً

---

(١) سبط ابن حجر : « رونق الألفاظ » الورقة ١٨٠ .
(٢) « عقود الجمان » (نسخة مكتبة فاتح رقم ٤٤٣٥) .
(٣) ابن حجر : « الدرر » ٣ / ٤٢٧ .
(٤) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٦ .

مرموقة بين أساتيذ العصر ، فأَمَّهُ طلبةُ العلم من كل حَدب وصوب .

ونحن نعلم أن الذهبي تولى مناصب تدريسية كثيرة ، نعرف منها مشيخَة الحديث في تربة أم الصالح ، ودار الحديث الظاهرية ، والمدرسة النفيسية ، ودار الحديث التنكزية ، ودار الحديث الفاضلية ، ودار الحديث العُروية . وقد أتاحت له هذه المناصب أن يَدْرُسَ عليه عددٌ كبير من الطلبة يفوق الحصر ، قال تلميذه الحسيني : « وحَمَل عنه الكتابَ والسُّنةَ خلائقٌ [١] » وقال ابن قاضي شُهبة الأسدي : « سمع منه السُّبكي والبِرْزالي والعَلائي وابنُ كثير وابنُ رافع وابن رَجَب وخلائق من مشايخه ونُظَرائه . . . وتخرَّج به حُفّاظ [٢] » . وإنَّ كُتُب القرن الثامن لتَزخر بمئاتٍ من تلاميذ الذهبي النُّجُب لم نجد في إيرادهم كثيَر فائدةٍ في مثل هذا البحث .

ونرى من المفيد أن نقتطف في نهاية هذا الفصل آراءَ العلماء فيه لما لذلك من أهمية في تقويمه ، وكنا نَقَلْنا في أثناء هذا البحث بعضاً منها ، فقد وصفه رفيقه وشيخه عَلَم الدين البِرْزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ في « معجم شيوخه » ـ والذهبي ما زال في مطلع حياته العلمية ـ بقوله : « رجلٌ فاضلٌ ، صحيحُ الذِّهن . اشتغلَ ورحلَ ، وكتبَ الكثير . وله تصانيف واختصارات مفيدة . وله معرفةٌ بشيوخ القراءات [٣] » . وقال تلميذه صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ: « الشيخ الإمام العلامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي . حافظٌ لا يجارى ولا فِظٌ لا يُبارى ، أتقنَ الحديثَ ورجالَهُ ، ونظر عِلَلَهُ وأحوالَهُ ، وعَرَّف تراجم الناس ، وأَزالَ الإبهام في تواريخهم والإلباس . ذِهنٌ يتوقد

---

(١) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٦ .

(٢) « الإعلام » م ١ ورقة ٩٠ (نسخة باريس ١٣٩٨) .

(٣) سبط ابن حجر : « رونق الألفاظ » ورقة ١٨٠ .

ذكاؤُه ، وَيصِحُّ إلى الذَّهَب نسبَتُه وانتماؤُه . جَمع الكثير ، ونفعَ الجمَّ الغفير ، وأكثر من التصنيف ، ووفَّر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف . . . اجتمعتُ به وأخذتُ عنه وقرأتُ عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده جُمود المحدثين ولا كَوْدَنَة النقلة » [١] .

وعلى الرغم من مخالفة تاج الدين السبكي لشيخِه الذهبي في بعض المسائل وردِّه عليه ، فإنه قال في حقه : « شيخُنا وأستاذُنا ، الإمام الحافظ . . . محدِّث العصر . اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ ، بينهم عموم وخصوص : المِزِّي والبِرْزالي والذهبي والشيخ الإمام الوالد ، لا خامس لهؤلاء في عصرهم . . . وأما أستاذنا أبو عبد الله فبَصَرٌ لا نظير له ، وكنزٌ هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمامُ الوجود حِفظاً ، وذهَبُ العصر معنى ولفظاً ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل . . . وهو الذي خرَّجنا في هذه الصناعة ، وأدخلنا في عداد الجماعة [٢] » ، وقال أيضاً : « وسمع منه الجمع الكثير . وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسَخت فيه قدمه ، وتعِبَ الليل والنهار ، وما تعِبَ لسانه وقلمه ، وضُربت باسمه الأمثال ، وسار اسمُه مسير لقبِه الشمس إلا أنه لا يتقلص إذا نزل المطر ، ولا يُدبر إذا أقبلت الليالي . وأقام بدمشق يُرْحَل إليه من سائر البلاد ، وتُناديه السؤالات من كل ناد » [٣] . ووصفه تلميذُه الحسيني المتوفى سنة ٧٦٥هـ بأنه « الشيخ الإمام العلامة شيخ المحدثين قُدوة الحفاظ والقراء محدِّث الشام ومؤرخه ومفيده [٤] » وقال في موضع آخر : « وكان أحد

---

(١) « الوافي » ٢ /١٦٣ .
(٢) « الطبقات » ٩ / ١٠٠ ـ ١٠١
(٣) المصدر نفسه ، ٩ /١٠٣
(٤) « ذيل تذكرة الحفاظ » ص ٣٤

الأذكياء المعدودين والحفاظ المبرزين [١] » . وقال تلميذه عماد الدين بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ : « الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين . . . وقد خُتِم به شيوخ الحديث وحُفَّاظه [٢] » . وحينما قَدِمَ العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الأصل الأطرابلسي [٣] إلى دمشق سنة٧٣٤هـ ودَرَسَ على الذهبي في تلك السنة قال فيه :

ما زلت بالسَّمع أهواكُم وما ذُكرت أخبارُكم قط إلا ملْتُ من طَرَبِ
وليسَ من عجَبٍ أنْ مِلْتُ نحوَكُم فالنَّاس بالطَّبع قد مَالوا إلى الذَّهَب [٤]

ووصَفه الحافظ ابن ناصر الدين المتوفى سنة ٨٤٢هـ بأنه« الحافظ الهُمام مفيد الشام ، ومؤرِّخ الإسلام [٥] » . وقال ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ« قرأتُ بخط البدر النابلسي في مشيخته : كان عَلاّمة زمانه في الرجال وأحوالِهم حديد الفهم ثاقب الذهب وشُهرته تغني عن الإطناب فيه [٦] » . وقال بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ :« الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ المؤرخ شيخ المحدّثين [٧] ». وذكره سبط ابن حجر المتوفى سنة٨٩٩هـ في « رونق الألفاظ » وبالغ في الإطناب فيه ، وقال : « الشيخ الإمام العالم العلامة حافظ الوقت الذي صار هذا اللقب عَلَماً عليه.. . فللّه دره من إمام محدث ... فكم دخل في جميع الفنون وخرّج وصحّح ، وعَدَّل وجَرَّحَ ، وأتقنَ هذه الصناعة ... فهو الإمامُ سيدُ الحفاظ إمام المحدثين قدوة الناقدين » . وقال في موضع آخر :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦
(٢) « البداية والنهاية » ١٤ /٢٢٥
(٣) توفي سنة ٧٧٤هـ وقد ترجمه ابن حجر في « الدرر » ٤ / ٣٠٦ ـ ٣٠٧
(٤) ابن ناصر الدين : « الرد الوافر » ص ٣١ ـ ٣٢
(٥) المصدر نفسه ، ص ٣١
(٦) الدرر ، ٣ / ٤٢٧
(٧) « عقد الجمان » ورقة ٣٧ (نسخة أحمد الثالث ٢٩١١) .

« وكتبَ بخطه كثيراً من الأجزاء والكتب وحَصَّل الأُصول وانتقىٰ على جماعة من شيوخه . . . وعُنِيَ بهذا الفن أعظم عِناية ، وبَـرَعَ فيه وخـدَمَهُ الليـلَ والنهار [١] » .

---

(١) الورقة ١٨٠

obeikandl.com

ثامناً . وفاته وأولاده :

أَضَرَّ الذهبي في أُخريات سِنِيِّ حياته ، قبلَ موته بأربع سنين أو أكثر ، بماءٍ نزل في عينيه ، فكان يتأذَّى وَيغضب إذا قيل له : لو قَدحت هذا لرجَع إليك بصرك ، ويقول : ليس هذا بماء ، وأنا أعْرَفُ بنفسي ، لأنني ما زال بصري ينقص قليلاً قليلاً إلى أن تكامل عدمه [١] .

وتوفي بتربة أم الصالح ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة قبل نصف الليل سنة ٧٤٨هـ ودُفن بمقابر باب الصغير ، وحضر الصلاة عليه جملةٌ من العلماء كان من بينهم تاج الدين السبكي[٢] وقد رثاه غيرُ واحد من تلامذته منهم الصلاح الصفدي[٣] والتاج السبكي[٤].

وترك الذهبي ثلاثة من أولاده عُرفوا بالعلم هم :

١ ـ ابنته أَمةُ العزيز ، وقد أجاز لها غيرُ واحد باستدعاءِ والدها منهم : شيخ المستنصرية رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٧٠٧ [٥] . ويظهر أنها تزوجت في حياة والدها وخلَّفت ولداً اسمه عبد القادر

---

(١) الصفدي : « نكت الهميان » ص ٢٤٢ ، ابن دقماق : «ترجمان الزمان» الورقة ٩٩.

(٢) السبكي : « طبقات » ٩ / ١٠٥ ـ ١٠٦ وقد زاره والده تقي الدين السبكي قبل المغرب وسأله عن حاله . الصفدي : « الوافي » ٢ / ١٥٦ ، « ونكت الهميان » ص ٢٤٢ ، ابن حجر : « الدرر » ٣ / ٤٢٧ وغيرهم ، ممن ترجم له .

(٣) « الوافي » ٢ / ١٦٥

(٤) « طبقات » ٩ / ١٠٩ ـ ١١١ وهي طويلة أورد بعضها ، وابن قاضي شُهبة : « الإعلام » م ١ ورقة ٩٠

(٥) الذهبي : « منتقى المعجم المختص » الورقة ٣٩ (باريس ٢٠٧٦) و «معجم الشيوخ» م ٢ ورقة ٤٦ ، وانظر أيضاً ١م ورقة ٧٨

سمع مع جَدِّه من أحمد بن محمد المقدسي المتوفى سنة٧٣٧[١] هـ،وأجازله جَدُّه روايةَ كِتابه « تاريخ الإسلام » [٢] .

٢ ـ ابنه أبو الدرداء عبد الله ، وُلد سنة ٧٠٨هـوأسمَعهأبوه من خلقٍ كثير ، وحَدَّث ومات في ذي الحجة سنة ٧٥٤ [٣] .

٣ ـ ابنه شهاب الدين أبو هريرة عبد الرحمن ، وُلد سنة٧١٥ هـ وسمع مع والدِه أجزاء حديثية كثيرة [٤] ، وسمع من عيسىٰ المُطَعِّم الدَّلال المتوفى سنة ٧١٩ هـ،وخرَّج له أبوه أربعين حديثاً عن نحو المئةِ نفس ، وحَدَّث منذ سنة ٧٤٠هـوتأخرتوفاته إلى ربيع الآخر سنة ٧٩٩ [٥]هـوخلفَولداً اسمه محمد ، سمع معَ جده [٦] ، وأجاز له جدُّه رواية كتابه « تاريخ الإسلام » [٧] .

---

(١) الذهبي : « معجم الشيوخ » م ١ الورقة ١٧ .

(٢) راجع طرة المجلد الحادي والعشرين من « تاريخ الإسلام » الذي بخط الذهبي (أيا صوفيا ٣٠١٤) .

(٣) ابن حجر : « الدرر » ٢ / ٣٩٢ .

(٤) انظر مثلاً : « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٣٨ ، ٦٩ ـ ٧٠ ، ٧٤ ـ ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، م٢ الورقة ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ .

(٥) ابن حجر : « الدرر » ٢ / ٤٤٩ ، والتونسي : « دستور الإعلام بمعارف الأعلام » الورقة ١١٦ (نسخة ولي الدين جار الله ١٦٠٥ ـ ٦٩٧) .

(٦) « معجم الشيوخ » م ١ ورقة ٤٤ .

(٧) انظر طرة المجلد الحادي والعشرين (أيا صوفيا ٣٠١٤) .

تاسعاً: آثار الذهبي:

وهذه تذكرةٌ في آثار مؤرخ الإسلام الذهبي عنيتُ فيها بذكر ما ألَّف واختصر، وخرَّج على أَخْصَرِ ما يُمكن، إذ تفاصيلُها مبسوطةٌ في كتابي «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام»[1]، واقتفيت فيها المنهجَ الآتي:

١ ـ قسمتُ المؤلفات حسب موضوعاتها، ورتبتُ الكتب الواردة في كُلِّ موضوع على حروف المعجم. أما المختصراتُ، والمنتَقَيَات، والتخاريج، فاكتفيتُ بسردها وفقَ ذلك الترتيبِ من غير تقسيم لها.

٢ ـ نبهتُ فيما إذا كان الكتابُ موجوداً: مخطوطاً أو مطبوعاً، وأشرتُ إلى إحدى طبعاته أو نسخه بين قوسين، وتركتُ الذي لم أعثر له على نسخة غُفلاً من ذلك.

أولاً: القراءآت:

١ ـ التلويحات في علم القراءآت (بروكلمان: الملحق ٢/٤٧).

ثانياً: الحديث:

٢ ـ الأربعون البلدانية.

٣ ـ الثلاثون البلدانية.

٤ ـ طرق حديث «مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه».

٥ ـ الكلامُ على حديث الطير.

٦ ـ المستدرك على مستدرك الحاكم. (الظاهرية: ٦٢ مجاميع).

---

(١) القاهرة: ١٩٧٦ ص: ١٣٩ ـ ٢٧٦

ثالثاً: مصطلح الحديث وآدابه:

٧ ـ كتاب الزيادة المضطربة .

٨ ـ طرق أحاديث النزول .

٩ ـ العذب السلسل في الحديث المسلسل.

١٠ ـ منية الطالب لأعز المطالب.

١١ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث (باريس: ٤٥٧٧) .

رابعاً: العقائد:

١٢ ـ أحاديث الصفات .

١٣ ـ الأربعين في صفات رب العالمين (منها جزء في الظاهرية، وانظر الألباني: ٢٨٠).

١٤ ـ جزء في الشفاعة

١٥ ـ جزآن في صفة النار .

١٦ ـ الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية (طبعت بدمشق: ١٣٤٧ هـ).

١٧ ـ الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال .

١٨ ـ رؤية الباري.

١٩ ـ العرش (انظر بروكلمان: الملحق: ١/٤٧).

٢٠ ـ العلو للعلي الغفار. (طبع غير مرة منها بمصر: ١٣٣٢ هـ).

٢١ ـ الكبائر. (مطبوع، القاهرة: ١٣٥٦ هـ).

٢٢ ـ ما بعد الموت.

٢٣ ـ مسألة دوام النار.

obeikandl.com

٢٤ ـ مسألة الغيبة.

٢٥ ـ مسألة الوعيد.

خامساً: أصول الفقه :

٢٦ ـ مسألة الاجتهاد.

٢٧ ـ مسألة خبر الواحد.

سادساً: الفقه:

٢٨ ـ تحريم أدبار النساء .

٢٩ ـ تشبيه الخسيس بأهل الخميس (دار الكتب المصرية).

٣٠ جزء في الخضاب.

٣١ ـ جزء من صلاة التسبيح .

٣٢ ـ جزء في القهقهة .

٣٣ ـ حقوق الجار. (كوبرلي٠ ١٥٨٤ / ٣).

٣٤ ـ فضائل الحج وأفعاله .

٣٥ ـ اللباس.

٣٦ ـ مسألة السماع.

٣٧ ـ الوتر .

سابعاً: الرقائق:

٣٨ ـ جزء في محبة الصالحين.

٣٩ ـ دعاء المكروب .

٤٠ ـ ذكر الولدان .

obeikandl.com

٤١ ـ التعزية الحسنة بالأعزة .

٤٢ ـ كشف الكُربة عند فقد الأحبة .

ثامناً: التاريخ والتراجم:

٤٣ ـ أخبار السد.

٤٤ ـ أخبار قُضاة دمشق.

٤٥ ـ أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع. (أيا صوفيا: ٢٩٥٣).

٤٦ ـ الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام. (الأحمدية بحلب: ٣٢٨).

٤٧ ـ الإعلام بوفيات الأعلام (نسخه كثيرة منها بالظاهرية: مجموع ١١٧) .

٤٨ ـ الأمصار ذوات الآثار . (من نسخة في استانبول وأخرى بالمدينة).

٤٩ ـ أهل المئة فصاعداً (مطبوع، بغداد: ١٩٧٣).

٥٠ ـ البيان عن اسم ابن فلان.

٥١ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (طبع اليسير منه، ونسخه مشتتة في خزائن الكتب، وعندي نسخة كاملة مصورة).

٥٢ ـ التاريخ الممتع .

٥٣ ـ تذكرة الحفاظ. (مطبوع، حيدر آباد ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ وهي أحسن الطبعات).

٥٤ ـ تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق. (مطبوع، ليدن: ١٨٩٠).

٥٥ ـ تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري (لا له لي باستانبول: ٢٠٨٩) .

٥٦ ـ تقييد المهمل

٥٧ ـ التلويح بمن سبق ولحق .

٥٨ ـ جزء أربعة تعاصروا .

٥٩ ـ دول الإسلام. (مطبوع، حيدر آباد: ١٣٣٧ هـ).

٦٠ ـ ديوان الضعفاء والمتروكين (مطبوع).

٦١ ـ ذكرمَن اشتهر بكنيته من الأعيان (جستربتي بدبلن: مجموع ٣٤٥٨).

٦٢ ـ ذكر من يُؤتمن قوله في الجرح والتعديل (أيا صوفيا: ٢٩٥٣).

٦٣ ـ ذيل الإشارة إلى وفيات الأعيان .

٦٤ ـ ذيل دول الإسلام (مطبوع، حيدر آباد: ١٣٣٧).

٦٥ ـ ذيل سير أعلام النبلاء.

٦٦ ـ ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين. (الظاهرية: مجموع ٣٦٩ حديث).

٦٧ ـ ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي .

٦٨ ـ الذيل على ذيل كتاب الضعفاء لابن الجوزي.

٦٩ ـ ذيل العبر في خبر من عبر (مطبوع، الكويت ـ بدون تاريخ).

٧٠ ـ الرد على ابن القطان (مختصر[1] منه في الظاهرية: مجموع: ٧٠) .

---

(١) ظنه الألباني أصل الكتاب (انظر الفهرس: ٢٨٢) وهو وهم .

٧١ ـ الزلازل .

٧٢ ـ سير أعلام النبلاء (وهو هذا الكتاب) .

٧٣ ـ طبقات الشيوخ .

٧٤ ـ العُباب في التاريخ .

٧٥ ـ العبر في خبر من عبر (مطبوع بالكويت وفيه نقص).

٧٦ ـ عنوان السير في ذكر الصحابة .

٧٧ ـ القبان (في أصحاب التقي ابن تيمية).

٧٨ ـ المجرد في أسماء رجال كتب سنن الإمام أبي عبد الله بن ماجة سوى من أخرج له منهم في أحد الصحيحين (الظاهرية: ٥٣١ حديث).

٦٩ ـ المرتجل في الكنى (بروكلمان: ٢/٥٩).

٨٠ ـ المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم (مطبوع، وأعيد طبعه بالقاهرة ١٩٦٢).

٨١ ـ معجم الشيوخ الكبير. (دار الكتب المصرية: ٦٥ حديث)

٨٢ معجم الشيوخ الأوسط.

٨٣ ـ المعجم الصغير (اللطيف). (الظاهرية: مجموع: ١٢).

٨٤ ـ المعجم المختص بمحدثي العصر (منه انتقاء لابن قاضي شهبة بباريس: ٢٠٧٦ عربيات، والأوقاف العراقية: مجموع رقم: ٢٨٤١).

٨٥ ـ معرفة آل مندة .

٨٦ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (مطبوع، القاهرة: ١٩٦٩).

٨٧ ـ المعين في طبقات المحدثين. (فيض الله باستانبول: ١٥٢٨) .

٨٨ ـ المغني في الضعفاء. (مطبوع بحلب: ١٩٧١).

٨٩ ـ المقدمة ذات النقاط في الألقاب. (دار الكتب المصرية: ٤٤٢٣ج).

٩٠ ـ مَن تكلم فيه وهو موثق. (عندي منه نسخة) وهو غير:

٩١ ـ الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم (المطبوع بالقاهرة: ١٩٠٦).

٩٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال(مطبوع مشهور، منها طبعة القاهرة ١٩٦٣).

٩٣ ـ هالة البدر في عدد أهل بدر (لعله هو الذي في الظاهرية ضمن مجموع: ٤٧).

تاسعاً: السِّيَر والتراجم المفردة:

٩٤ ـ أخبار أبي مسلم الخراساني.

٩٥ ـ أخبار أم المؤمنين عائشة[١].

٩٦ ـ التبيان في مناقب عثمان.

٩٧ ـ ترجمة ابن عقدة الكوفي.

٩٨ ـ ترجمة أبي حنيفة. (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

٩٩ ـ ترجمة أبي يوسف القاضي (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

١٠٠ ـ ترجمة أحمد بن حنبل[٢].

---

(١) نشر الاستاذ الأفغاني ترجمتها من سير أعلام النبلاء (دمشق: ١٩٤٥).
(٢) نشر المرحوم الشيخ أحمد شاكر ترجمة الإمام أحمد من تاريخ الاسلام.

١٠١ ـ ترجمة الخضر.

١٠٢ ـ ترجمة السّلَفِي[١].

١٠٣ ـ ترجمة الشافعيّ.

١٠٤ ـ ترجمة الشيخ الموفق[٢].

١٠٥ ـ ترجمة مالك بن أنس.

١٠٦ ـ ترجمة محمد بن الحسن الشيباني (مطبوع بالقاهرة ـ بدون تاريخ).

١٠٧ ـ توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق.

١٠٨ ـ الدرة اليتيمية في سيرة التيمية.

١٠٩ ـ الزخرف القصري (في ترجمة الحسن البصري).

١١٠ ـ سيرة الحَلّاج.

١١١ ـ سيرة أبي القاسم الطبراني.

١١٢ ـ سيرة سعيد بن المسيب.

١١٣ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز.

١١٤ ـ السيرة النبوية (وهي في تاريخ الإسلام).

١١٥ ـ فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب.

---

(١) أبو طاهر أحمد بن محمد الاصبهاني المحدث المشهور المتوفى سنة ٥٧٦ هـ.

(٢) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي صاحب التصانيف المشهورة المتوفى سنة ٦٢٠ هـ.

obeikandl.com

١١٦ ـ قض نهارك بأخبار ابن المبارك.

١١٧ ـ مناقب البخاري (دار الكتب المصرية ـ طلعت، مجموع: ٩٦٥).

١١٨ ـ نِعم السمر في سيرة عمر.

١١٩ ـ نفض الجُعبة في أخبار شُعْبَة.

١٢٠ ـ سيرة لنفسه.

عاشراً: المنوعات:

١٢١ ـ بيان زغل العلم والطلب[١]. (مطبوع، دمشق: ١٣٤٧).

١٢٢ ـ التمسك بالسنن.

١٢٣ ـ جزء في فضل آية الكرسي.

١٢٤ ـ الطب النبوي (طبع غير مرة، وينسب لغيره أيضاً).

١٢٥ ـ كسر وثن رتن[٢].

أحد عشر: المختصرات والمنتقيات:

١٢٦ ـ أحاديث مختارة من الموضوعات من «الأباطيل» للجورقاني[٣]. (المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث).

١٢٧ ـ بلبل الروض.

---

(١) وجاء عنوانه في نسخة برلين (٥٥٧٠): «رسالة فيما يذم ويعاب في كل طائفة».

(٢) رتن هذا هندي دجال ظهر بعد سنة ست مئة وادعى التعمير وصحبة النبي ﷺ.

(٣) كتاب الأباطيل لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم بن الحسين الجورقاني المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، وقد نسبه الشيخ الألباني لأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني المتوفى سنة ٢٥٩ هـ، وتابعه سزكين، وهو وهم.

اختصره من «الروض الأُنف» للسهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هـ.

١٢٨ ـ تجريد أسماء الصحابة. (مطبوع، حيدر آباد: ١٣١٥ هـ).

اختصره من «أسد الغابة» لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

١٢٩ ـ تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (أحمد الثالث: ٢٩٤٩ / ١ ـ ٤).

١٣٠ ـ ترتيب «الموضوعات» لابن الجوزي. (المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث).

١٣١ ـ تلخيص «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» لابن الجوزي (المكتبة الأزهرية، مجموع: ٢٩٠ حديث).

١٣٢ ـ تنقيح كتاب «التحقيق في أحاديث التعليق» لابن الجوزي. (فيض الله: ٢٩٦).

١٣٣ ـ تهذيب تاريخ[1] علم الدين البِرْزالي.

١٣٤ ـ ذكر الجهر بالبسملة مختصراً. (الظاهرية، مجموع: ٥٥).

اختصره من تصنيف في هذا الموضوع للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

١٣٥ ـ الرخصة في الغناء والطرب بشرطه. (الظاهرية: ٧١٥٩).

اختصره من كتاب «السماع» للأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

١٣٦ ـ الكاشف في معرفة مَن له رواية في الكتب الستة. (مطبوع، القاهرة: ١٩٧٢).

---

(١) تاريخ البرزالي هو «المقتفي لتاريخ أبي شامة» عندي منه نسخة.

اختصره من «تهذيب الكمال» لشيخه ورفيقه المزي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ.

١٣٧ ـ المجرد من «تهذيب الكمال» (الفاتيكان: ١٠٣٢).

١٣٨ ـ مختصر «إنباه الرواة على أنباه النحاة» لابن القفطي. (ليدن)

١٣٩ ـ مختصر «الأنساب» لأبي سعد السمعاني.

١٤٠ ـ مختصر «البعث والنشور» للبيهقي.

١٤١ ـ مختصر «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.

١٤٢ ـ مختصر «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

١٤٣ ـ مختصر «تاريخ مصر» لابن يونس.

١٤٤ ـ مختصر «تاريخ نيسابور» لأبي عبد الله الحاكم.

١٤٥ ـ مختصر «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للمزي.

١٤٦ ـ مختصر «تقويم البلدان» لأبي الفدا.

١٤٧ ـ مختصر «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبار.

١٤٨ ـ مختصر «التكملة لوفيات النقلة» للمنذري.

١٤٩ ـ مختصر «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر.

١٥٠ ـ مختصر «الجهاد» لبهاء الدين ابن عساكر.

١٥١ ـ مختصر «ذيل تاريخ بغداد» لأبي سعد السمعاني.

١٥٢ ـ مختصر «الرد على ابن طاهر[١]» لابن المجد[٢].

١٥٣ ـ مختصر «الروضتين في أخبار الدولتين» وذيله لأبي شامة.

---

(١) أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي، ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ وكتابه الذي رد عليه ابن المجد في «السماع».

(٢) سيف الدين أبو العباس أحمد ابن المجد عيسى المقدسي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ.

١٥٤ ـ مختصر «الزهد» للبيهقي. (عارف حكمت بالمدينة المنورة).

١٥٥ ـ مختصر «سلاح المؤمن في الأدعية المأثورة» لابن الإمام[١].

١٥٦ ـ مختصر «صلة التكملة لوفيات النقلة» لعز الدين الحسيني.

١٥٧ ـ مختصر «الضعفاء» لابن الجوزي.

١٥٨ ـ مختصر «الفاروق في الصفات» لشيخ الإسلام الأنصاري.

١٥٩ ـ مختصر «القَدَر» للبيهقي.

١٦٠ ـ المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن الدبيثي. (طبع ببغداد: ١٩٥١ ـ ١٩٧٦).

١٦١ ـ مختصر «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي.

١٦٢ ـ مختصر «المستدرك على الصحيحين» لأبي عبد الله الحاكم (طبع بهامش المستدرك).

١٦٣ ـ مختصر «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي.

١٦٤ ـ مختصر «مناقب سفيان الثوري» لابن الجوزي.

١٦٥ ـ مختصر «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

١٦٦ ـ مختصر «الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام» لابن القطان. (الظاهرية، مجموع: ٧٠).

١٦٧ ـ المستحلى في اختصار «المحلَّى» لابن حزم.

١٦٨ ـ معرفة التابعين من «الثقات» لابن حِبّان (الاسكوريال: ١٦٨٩).

---

(١) أبو الفتح محمد بن محمد بن علي المصري المتوفى سنة ٧٤٥ هـ.

١٦٩ ـ المقتضب من «تهذيب الكمال» للمزي .

١٧٠ ـ المقتنى في سرد الكنى . (الأحمدية بحلب: ٣٢٨).

اختصره من كتاب «الكنى» لأبي أحمد الحاكم المتوفى سنة ٣٧٨ .

١٧١ ـ المنتخب من «التاريخ المجدد لمدينة السلام» لابن النجار البغدادي .

١٧٢ ـ منتقى «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، لابن عبد البر.

١٧٣ ـ المنتقى من تاريخ أبي الفدا .

١٧٤ ـ المنتقى من «تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي .

١٧٥ ـ المنتقى من «مسند» أبي عَوَانة .

١٧٦ ـ المنتقى من «مسند» عبد بن حُمَيد .

١٧٧ ـ المنتقى من «معجم شيوخ» يوسف بن خليل الدمشقي .

١٧٨ ـ المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ومن مسند المُقِلِّين لدعلج . (منه قطعة في الظاهرية، مجموع: ٧١).

١٧٩ ـ المنتقى من «معرفة الصحابة» لابن مندة .

١٨٠ ـ المنتقى من «منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» لابن تيمية . (طبع بمصر: ١٣٧٤ هـ).

١٨١ ـ مهذب «السنن الكبرى» للبيهقي . (مكتبة مدنية باستانبول ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠ وطبع بالقاهرة باسم «المهذب في اختصار السنن الكبير» وهو عنوان غير صحيح) .

١٨٢ ـ نبذة من فوائد تاريخ ابن الجزري [١] كوبرلي: ١١٤٧) .

١٨٣ ـ النبلاء في شيوخ السنة . اختصره من كتاب «المعجم المشتمل على أسماء شيوخ الأئمة النُّبَل» لابن عساكر.

اثنا عشر: التخاريج :

قام الذهبي بتخريج عدد كبير من معجمات الشيوخ والمشيخات والأربعينات والأجزاء الحديثية الكبيرة والصغيرة، منها :

أ ـ معجمات الشيوخ :

١٨٤ ـ معجم شيوخ ابن البالسي المتوفى سنة ٧١١ هـ.

١٨٥ ـ معجم شيوخ ابن حبيب الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ.

١٨٦ ـ معجم شيوخ علاء الدين ابن العطار الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٤ هـ.

١٨٧ ـ المعجم العلي للقاضي الحنبلي (أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي المتوفى سنة ٧١٥ هـ.) .

ب ـ المشيخات :

١٨٨ ـ مشيخة التَّلِّي (محمد بن أحمد الصالحي الخياط المتوفى سنة ٧٤١ هـ).

١٨٩ ـ مشيخة الجعبري المتوفى سنة ٧٠٦ هـ.

---

(١) توفي ابن الجزري سنة ٧٣٩ وهو غير ابن الجزري صاحب «غاية النهاية في طبقات القراء» وتاريخه هذا يعرف باسم «حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه» عندي قطع منه، وهو من التواريخ المستوعبة .

١٩٠ ـ مشيخة ابن الزراد الحريري المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١٩١ ـ مشيخة عز الدين المقدسي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ.

١٩٢ ـ مشيخة ابن القواس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ.

١٩٣ ـ مشيخة زين الدين الكَحّال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

جـ ـ الأربعينات :

١٩٤ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «المعجم الصغير» للطبراني . (التيمورية بمصر: ٤٣٨ حديث).

١٩٥ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم» ابن جُمَيع الصيداوي .

١٩٦ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم شيوخ» أبي بكر المقدسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ .

١٩٧ ـ أربعون حديثاً بلدانية من «معجم شيوخ» ابن زاذان المتوفى سنة ٤٨١ هـ .

١٩٨ ـ أربعون حديثاً لأبي المعالي الأبرقوهي المتوفى سنة ٧٠١ هـ.

١٩٩ ـ أربعون حديثاً لابنه أبي هريرة عبد الرحمان المتوفى سنة ٧٩٩هـ

د ـ الثلاثينات :

٢٠٠ ـ ثلاثون حديثاً من «المعجم الصغير» للطبراني.

هـ ـ العوالي:

٢٠١ ـ عوالي الشمس ابن الواسطي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ .

٢٠٢ ـ عوالي الطاووسي المتوفى سنة ٧٠٤ هـ .

obeikandl.com

٢٠٣ ـ عوالي أبي عبد الله ابن اليونيني المتوفى سنة ٧٤٧ هـ .

٢٠٤ ـ العوالي من حديث مالك بن أنس.

٢٠٥ ـ العوالي المنتقاة من حديث الذهبي (الظاهرية، مجموع: ٤٥١٢ عام) .

و ـ الأجزاء :

٢٠٦ ـ الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار (دار الكتب المصرية: ١٥٠٨ حديث) .

٢٠٧ ـ جزء من حديث القزويني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ .

٢٠٨ ـ جزء من حديث أبي بكر المرسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ.

٢٠٩ ـ جزء من حديث ابن المحب المقدسي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ.

٢١٠ ـ جزء من حديث ابن الكويك المتوفى سنة ٧٣٤ هـ.

٢١١ ـ جزء من حديث أمين الدين الواني المتوفى سنة ٧٣٥ هـ.

٢١٢ ـ جزء من حديث ابن جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٦٧ هـ .

٢١٣ ـ أحاديث «مختصر» ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(ومختصر ابن الحاجب من كتب أصول الفقه المشهورة وهو «منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل» وقد طبع) .

٢١٤ ـ ثلاثيات ابن ماجة. (الظاهرية، مجموع: ٥٩) .

٢١٥ ـ المنتقى من حديث تقي الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن المجد البعلي. (الظاهرية، مجموع: ٢٥).